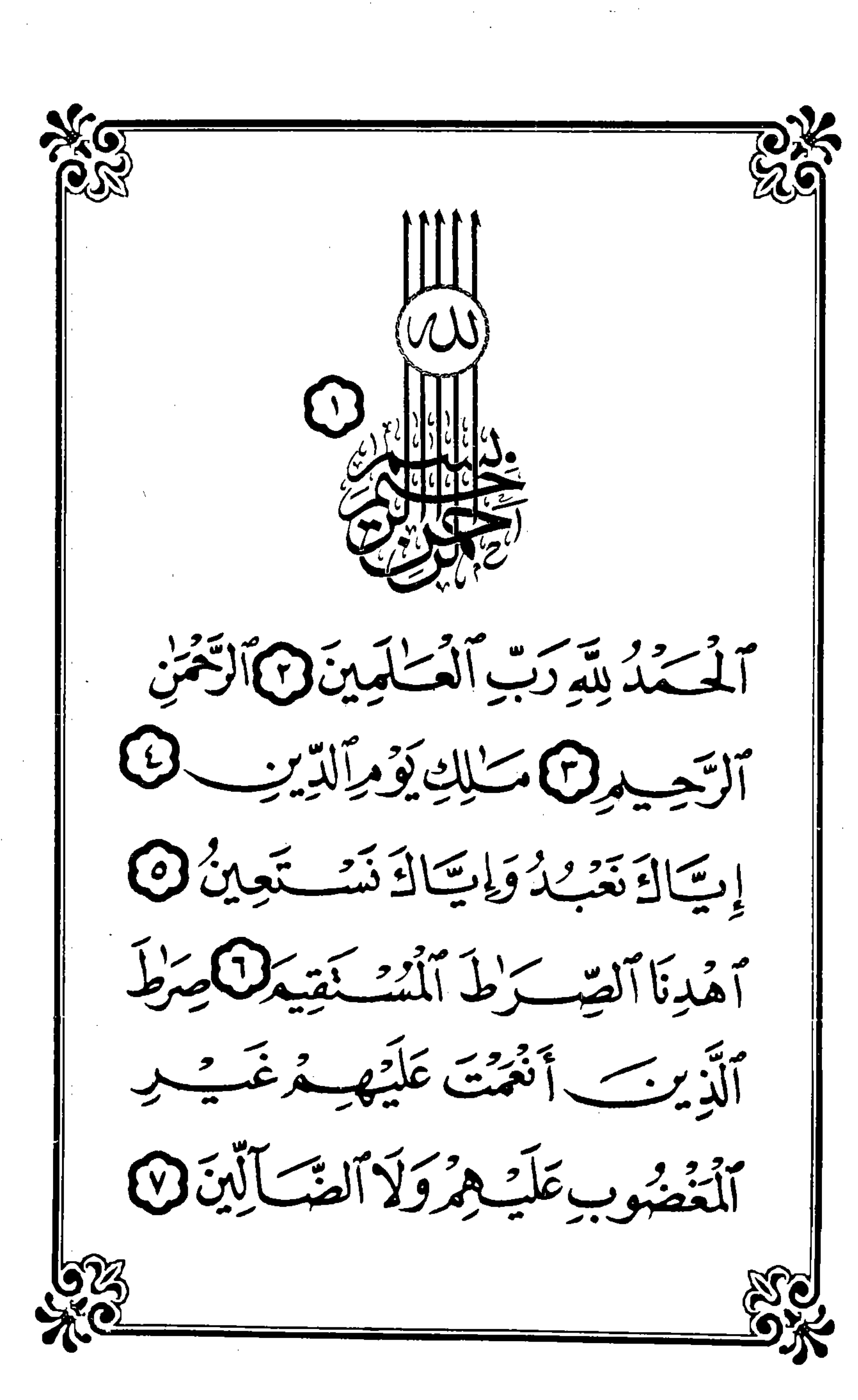
الرسول ﷺ واليهود
وجهاً لوجه
(٥)

التآمر اليهودي

على حياة الرسول ﷺ

تأليف
الدكتور سعد المرصفي

مكتبة المنار الإسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم ١

ٱلحمد لله رب ٱلعلمين ٢ ٱلرحمن
ٱلرحيم ٣ ملك يوم ٱلدين ٤
إياك نعبد وإياك نستعين ٥
ٱهدنا ٱلصرط ٱلمستقيم ٦ صرط
ٱلذين أنعمت عليهم غير
ٱلمغضوب عليهم ولا ٱلضالين ٧

التآمر اليهودي

على حياة الرسول ﷺ

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م



Print. Publ. & Dist. Islamic Books & Cassattes





طباعة ونشر وتوزيع الكتب والأشرطة الإسلامية

كويت - حولي - شارع المثنى - تلفون: ٢٦١٥٠٤٥ - فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤ - ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي - الرمز البريدي 32045
Kuwait - Hawalli Al-Mothana Street, Tel.: 2615045, Fax: 2636854, P.O.Box: 43099 Hawalli, Postal Code No. 32045

مقدمة

كان المتوقع أن يكون اليهود أول المؤمنين بالرسالة والرسول ﷺ مذ كانوا يتوقعون ذلك، وعندهم البشارات الكثيرة التي تضمنها كتابهم ـ كما أسلفنا ـ وهم الذين كانوا يستفتحون بذلك على المشركين .. بيد أن الواقع كان على العكس من ذلك، ومن ثم كان كفرهم قبيحا. لأنهم كفروا بالنبي الذي ارتقبوه، حسدا أن يختاره الله للرسالة التي انتظروها، وحقدا لأن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده:

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1].

وهذه الطبيعة التي تبدو هنا في يهود هي الطبيعة الكنود، طبيعة الأثرة الضيقة التي تحيا في نطاق من التعصب شديد، وتحس أن كل خير يصيب سواها كأنما هو مقتطع منها، ولا تشعر بالوشيجة الإنسانية الكبرى ... وهكذا عاش اليهود في عزلة، يحسون أنهم فرع مقطوع من شجرة الحياة، ويتربصون بالبشرية الدوائر، ويكنون للناس البغضاء، ويعانون عذاب الأحقاد والضغائن، ويذيقون البشرية رجع هذه الأحقاد فتنا يوقدونها، وحروبا يثيرونها، وهلاكا يسلطونه .. وما لهم وللحق؟! وما لهم أن يكون مصدقا لما معهم؟! فلقد كفروا بما جاءهم به أنبياؤهم، وقد حفظ تاريخهم سلسلة أثيمة في قتل الأنبياء!

وكانت الحروب التي شنها اليهود على الرسالة والرسول أعرض مجالا وأطول أمدا، من تلك التي شنها المشركون، والوثنيون، على ضراوتها وشدتها .. ولقد تآمروا على حياة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أكثر من مرة .. وحسبنا أن نذكر ما أجمع عليه بنو النضير، حيث أرسلوا إلى النبي ﷺ: اخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك . ويلقاك ثلاثة من علمائنا،

---

(١) البقرة: ٨٩ ـ ٩١ .

فإن آمنوا بك اتبعناك. ففعل: فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر، فأرسلت امرأة من بنى النضير إلى أخ لها من الأنصار مسلم تخبره بأمر بنى النضير، فأخبر أخوها النبى ﷺ قبل أن يصل إليهم ، فرجع ، وصبحهم بالكتائب فحصرهم يومه ....

ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى معرفة أهم صور التآمر اليهودى على حياة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ .. رجاء أن تكون هذه المعرفة دافعا قويا إلى الإعداد لمواجهتهم ، فهم أشد الناس عداوة للمؤمنين عبر التاريخ، ولم ينقطع هذا العداء لحظة منذ اليوم الأول للرسالة والرسول حتى اللحظة الحاضرة!

وقد اقتضت منهجية البحث أن تشتمل على ما يأتى :

الفصل الأول : غزوة بنى النضير .

الفصل الثانى : قتال أهل الكتاب .

الفصل الثالث : فى سبيل الله .

والله أسأل : التوفيق والسداد، والعون والرشاد . إنه سميع مجيب؛

الكويت فى : ٢٨ ذى القعدة ١٤١٢هـ
١ مايو ١٩٩٢م

سعد محمد محمد الشيخ (المرصفى)

الفصل الأول
غزوة بني النضير

متى كانت ؟ ـ يتآمرون على قتل النبى ـ اعترافهم بأن هذا نقض للعهد ـ خبر السماء ـ يهودى يقول : والله إنه لرسول الله ـ مؤامرة أخرى على قتل النبى ـ ترجيح ـ محاصرتهم ـ بين المنافقين واليهود ـ تقرير القرابة ـ صورة عجيبة ـ ملامح نفسية ـ بين بنى قينقاع وبنى النضير ـ « كمثل الشيطان » ـ منهج القرآن فى خطاب القلوب ـ إجلاؤهم ـ حقيقة إيمانية ـ « هو الذى أخرج الذين كفروا » ـ «فاعتبروا يا أولى الأبصار» ـ مصائر المشاقين لله ـ « الذين كفروا من أهل الكتاب » ـ تقطيع النخل وتحريقه ـ الشعر فى هذه الغزوة ـ حكم الفىء ـ حقيقة ضخمة ـ التنظيم الاقتصادى ـ النظرية الدستورية ـ من أسلم من بنى النضير ـ قصة قتل ـ هكذا كان إجلاؤهم .



متى كانت ؟:

قال البخارى: حديث بنى النضير، ومخرج رسول الله ﷺ فى دية الرجلين، وما أرادوا من الغدر برسول الله ﷺ . قال الزهري عن عروة: كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر قبل وقعة أحد . وقول الله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾ (1) .

وجعله ابن إسحاق بعد بئر معونة وأحد . (2) .

وبنو النضير هؤلاء قبيلة كبيرة من اليهود .

قال ابن حجر (3) : (قول الزهرى) وصله عبد الرزاق فى مصنفه (4) . عن معمر عن الزهرى أتم من هذا، ولفظه عن الزهرى فى حديثه عن عروة: ثم كانت غزوة بني النضير وهم طائفة من اليهود، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر ..

وحكى ابن التين عن الداودى أنه رجح ما قال ابن إسحاق من أن غزوة بنى النضير كانت بعد بئر معونة، مستدلا بقوله تعالى :

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ (5)

قال : وذلك فى قصة الأحزاب.

قلت : وهو استدلال واه، فإن الآية نزلت فى شأن بنى قريظة، فإنهم هم الذين ظاهروا الأحزاب، وأما بنو النضير فلم يكن لهم فى الأحزاب ذكر، بل كان من أعظم الأسباب فى جمع الأحزاب ما وقع من جلائهم، فإنه كان من رؤوسهم حيى بن أخطب، وهو الذى حسن لبني قريظة الغدر وموافقة الأحزاب ـ كما سيأتى ـ حتى كان من هلاكهم ما كان ، فكيف يصير السابق لاحقا ؟!

قوله: وقول الله عزوجل :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ﴾

---

(1) الحشر : ٢ .

(2) البخارى : ٦٤ ـ المغازى : ١٤ باب حديث بني النضير .

(3) فتح البارى : ٧: ٣٣٠ بتصرف .

(4) المصنف (٩٧٣٢) .

(5) الأحزاب : ٢٦

(6) الحشر : ٢ .

وقد وضح المراد من ذلك فى أثر عبد الرزاق المذكور، وقد أورد ابن إسحاق تفسيرها لما ذكر هذه الغزوة . واتفق أهل العلم على أنها نزلت فى هذه القصة، قاله السهيلى، قال: ولم يختلفوا فى أن أموال بنى النضير كانت خاصة برسول الله ﷺ ، وأن المسلمين لم يوجفوا بخيل ولا ركاب، وأنه لم يقع بينهم قتال أصلا.

قوله: « وجعله ابن إسحاق بعد [1] بئر معونة وأحد » كذا هو فى المغازى لابن إسحاق مجزوما به ، ووقع فى رواية القابس « وجعله إسحاق » قال عياض: وهو وهم، والصواب «ابن إسحاق» وهو كما قال .

ووقع فى شرح الكرمانى « محمد بن إسحاق بن نصر » وهو غلط ، وإنما اسم جده يسار.

يتآمرون على قتل النبى :

قال الحافظ: وقد ذكر ابن إسحاق عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم وغيره من أهل العلم أن عامر بن الطفيل أعتق عمرو بن أمية ، لما قتل أهل بئر معونة، عن رقبة كانت على أمه، فخرج عمرو إلى المدينة، فصادف رجلين من بنى عامر ، معهما عقد وعهد من رسول الله ﷺ ، لم يشعر به عمرو، فقال لهما عمرو: ممن أنتما ؟ فذكرا أنهما من بنى عامر، فتركهما حتى ناما فقتلهما عمرو، وظن أنه ظفر ببعض ثأر أصحابه، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال : « **لقد قتلت قتيلين لأدينهما** » [2] أى لأعطين ديتهما لما بيننا وبينهما من العهد.

قال ابن إسحاق وجل أهل المغازى فى سبب هذه الغزوة: ثم خرج عليه الصلاة والسلام إلى بنى النضير، ليستعين بهم فى دية ذينك القتيلين اللذين قتلها عمرو بن أمية، للجوار الذى كان ﷺ عقده لهما، وكان بين بنى النضير وبنى عامر عقد وحلف .

قال فى المواهب: قال شيخنا : ولعل سؤالهم لسهولة الإعطاء عليهم، لكون المدفوع لهم من حلفائهم، إذ لو كانوا أعداؤهم لشق عليهم الإعطاء لهم ..

فلما أتاهم عليه الصلاة والسلام يستعينهم فى ديتهما قالوا : نعم ، يا أبا القاسم : نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه .

---

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام : ٢: ١٩٠، ١٩٤ ، والطبقات الكبرى : ٢: ٥٧ ـ ٥٩ ، والبداية والنهاية: ٤: ٧٤ ومابعدها ، وعيون الأثر : ٢: ٤٨ ومابعدها .

(٢) فتح الباري : ٧: ٣٣١ ، وعيون الأثر: ٢: ٤٤ ـ ٤٨، والمواهب اللدنية :٢: ٨٠ .

قال: يحتمل أنهم قالوا ذلك، ليتمكنوا من تدبير ما أرادوه، ويحتمل أنه لما طرأ لهم الغدر بعد حين رأوه جنب الجدار. وفي رواية: أنهم قالوا: نفعل ما أحببت،، قد آن لك أن تزورنا وأن تأتينا، اجلس حتى تطعم وترجع بحاجتك، ونقوم فنتشاور، ونصلح أمرنا فيما جئتنا به.

ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوه على مثل هذا الحال، وكان ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم.

قالوا: من رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي هذه الصخرة عليه فيقتله ويريحنا منه؟!

فانتدب لذلك عمرو بن جَحَّاش بن كعب، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه الصخرة، وفي رواية: فجاء إلى رحى عظيمة ليطرحها عليه، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فيهم: أبو بكر وعمر وعلي، زاد عكرمة وغيره: وعثمان، وطلحة، وعبد الرحمن ابن عوف، رواه ابن جرير، وزاد غيره: والزبير، وسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وسعد ابن عبادة.

اعترافهم بأن هذا نقض للعهد:

قال ابن سعد: فقال سلام بن مشكم لليهود: لا تفعلوا، والله ليخبرن بما هممتم، وإنه لنقض العهد الذى بيننا وبينه، وفي رواية قال لهم: ياقوم، أطيعونى فى هذه المرة، وخالفوني الدهر، والله لئن فعلتم ليخبرن بأنا قد غدرنا به، وإن هذا نقض للعهد الذى بيننا وبينه.

خبر السماء:

وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام عليه الصلاة والسلام مظهرا أنه يقضى حاجته ويرجع، مخافة أن يفطنوا فيجتمعوا عليهم، وهم قليل، فقد يؤذون أصحابه، ولذا ترك أصحابه فى مجلسهم، ورجع مسرعا إلى المدينة، واستبطأ النبى أصحابه، فقاموا فى طلبه، فقال لهم حُيىٌّ لقد عجل أبو القاسم، كنا نريد أن نقضى حاجته، ونَقْرِيَه.

يهودى يقول: والله إنه لرسول الله:

وندمت اليهود على ماصنعوا، فقال لهم كنانة بن صُوَيْراء: هل تدرون لم قام محمد؟ قالوا: والله ماندرى، وما تدرى أنت؟ فقال: والله! أُخْبِرَ بما هممتم به من الغدر، فلا

تخدعوا أنفسكم، والله إنه لرسول الله !

وحين انتهى الصحابة إلى النبى ﷺ قالوا: قمت ولم نشعر، فأخبرهم الخبر بما أرادت يهود من الغدر به، قال موسى بن عقبة: ونزل فى ذلك قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾(١).

مؤامره أخرى على قتل النبى:

قال ابن حجر (٢) : وروى مردويه قصة بنى النضير بإسناد صحيح إلى معمر عن الزهرى: أخبرنى عبد الله بن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال:

كتب كفار قريش إلى عبد الله بن أبىٍّ وغيره ممن يعبد الأوثان قبل بدر، يهددونهم بإيوائهم النبى ﷺ وأصحابه، ويتوعدونهم أن يغزوهم بجميع العرب، فهمَّ ابن أبىّ ومن معه بقتال المسلمين، فأتاهم النبى ﷺ فقال:

« ما كادكم أحد بمثل ماكادتكم قريش، يريدون أن تلقوا بأسكم بينكم ».

فلما سمعوا ذلك عرفوا الحق فتفرقوا . فلما كادت وقعة بدر كتبت كفار قريش بعدها إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، ويتهددونهم، فأجمع بنو النضير على الغدر، فأرسلوا إلى النبى ﷺ :

اخرج إلينا فى ثلاثة من أصحابك، ويلقاك ثلاثة من علمائنا، فإن آمنوا بك اتبعناك. ففعل .

فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر، فأرسلت امرأة من بنى النضير إلى أخ لها من الأنصار مسلم تخبره بأمر بنى النضير، فأخبر أخوها النبى ﷺ قبل أن يصل إليهم، فرجع، وصبحهم بالكتائب فحصرهم يومه، ثم غدا على بنى قريظة، فحاصرهم، فعاهدوه فانصرف عنهم إلى بنى النضير، فقاتلهم ..

ترجيح :

قال ابن حجر: وكذا أخرجه عبد بن حميد فى تفسيره عن عبد الرزاق، وفى ذلك

---

(١) المائدة : ١١ . (٢) فتح البارى : ٧ : ٣٣١، والمواهب اللدنية : ٢ : ٨١.

رد على ابن التين فى زعمه أنه ليس فى هذه القصة حديث بإسناد.

قال: قلت :فهذا أقوى مما ذكر ابن إسحاق من أن سبب غزوة النضير طلبه أن يعينوه فى دية الرجلين، ولكن وافق قول ابن إسحاق جل أهل المغازى .

وقال: إذا ثبت أن سبب إجلاء بنى النضير ما ذكر من همهم بالغدر به ﷺ وهو إنما وقع عندما جاء إليهم، ليستعين بهم فى دية قتيلى عمرو بن أمية، تعين ماقال ابن إسحاق؛ لأن بئر معونة كانت بعد أحد بالاتفاق، وأغرب السهيلى فرجح ماقال الزهرى، ولولا ماذكر فى قصة عمرو لأمكن أن يكون ذلك فى غزوة الرجيع .

محاصرتهم :

قال ابن إسحاق(١) : فأمر ﷺ بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم، قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم إماما على الصلاة، ولم يستعمل على أمرها أحدا لقربها؛ لأن بينها وبين المدينة ميلين، كما قال البيضاوى ـ ثم سار بالناس حتى نزل بهم فحاصرهم ست ليال، وقال ابن سعد وابن حبان وغيرهما :خمسة عشر يوما، وقال التيمى : قريبا من عشرين، وقال ابن الطلاع: ثلاثة وعشرين ليلة، وعن عائشة: خمسة وعشرين، وفى تفسير مقاتل: إحدى وعشرين ليلة، قال فى المواهب: وجمع شيخنا بأن حصار الستة كان وهم مصرون على الحرب، طمعا فيما منّاهم به المنافقون، ومازاد إلى الخمسة عشر كانوا آخذين فى أسباب الخروج، وفيما بعد خرجوا فى أوقات مختلفة، فكان آخر خروجهم خمسة وعشرين .

بين المنافقين واليهود :

بيد أن المنافقين أرسلوا إليهم أن اثبتوا ونحن معكم، ننصركم على محمد وأصحابه، والله عز وجل يخبر عن المنافقين (٢) كعبد الله بن أبى وأضرابه، حين بعثوا إلى يهود بنى النضير يعدونهم النصر من أنفسهم، فقال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ

(١) المواهب اللدنية: ٢: ٨١ بتصرف .

(٢) تفسير ابن كثير : ٤: ٣٤٠ بتصرف .

رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

وهى حكاية [2] لما قاله المنافقون ليهود بنى النضير، ثم لم يفوا به. وخذلوهم فيه، حتى أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف فى قلوبهم الرعب...

ولكن فى كل جملة قرآنية لفتة تقرر حقيقة، وتمس قلبا، وتبعث انفعالا، وتقر مقوما من التربية والمعرفة، والإيمان العميق ...

تقرير القرابة:

وأول لفتة هى تقرير القرابة بين المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

فأهل الكتاب هؤلاء كفروا. والمنافقون إخوانهم ولو أنهم يلبسون رداء الإسلام !

ثم هذا التوكيد الشديد فى وعد المنافقين لإخوانهم:

﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾

والله الخبير بحقيقتهم يقرر غير ما يقررون، ويؤكد غير ما يؤكدون :

﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾

وكان ماشهد به الله. وكذب ما أعلنوه لإخوانهم وقرروه !

ثم يقرر حقيقة قائمة فى نفوس المنافقين وإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب:

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾

---

(١) الحشر : ١١ ـ ١٧ .

(٢) فى ظلال القرآن: ٦: ٣٥٢٨ وما بعدها بتصرف .

فهم يرهبون المؤمنين أشد مما يرهبون الله. ولو خافوا الله ماخافوا أحدا من عباده. فإنما هو خوف واحد. ورهبة واحدة. ولا يجتمع فى قلب خوف من الله وخوف من شىء سواه. فالعزة لله جميعا، وكل قوى الكون خاضعة لأمره جل شأنه :

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾[1] .

فمم يخاف إذن ذلك الذى يخاف الله ؟ ولكن الذين لا يفقهون هذه الحقيقة يخافون عباد الله أشد مما يخافون الله :

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾

وهكذا يكشف عن حقيقة القوم الواقعة، ويقرر فى الوقت ذاته تلك الحقيقة المجردة، ويمضي يقرر حالة فى نفوس المنافقين الذين كفروا من أهل الكتاب، تنشأ من حقيقتهم السابقة، ورهبتهم للمؤمنين أشد من رهبتهم لله:

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾

صورة عجيبة:

وما تزال الأيام تكشف حقيقة الإعجاز فى « تشخيص » حالة المنافقين وأهل الكتاب، حيثما التقى المؤمنون بهم فى أى زمان وفى أى مكان، وفى أى جيل وفى أى قبيل، بشكل واضح للعيان !

ولقد شهدت الاشتباكات الأولى فى أواخر الأربعينات من هذا القرن العشرين بين المؤمنين الفدائيين وبين اليهود مصداق هذا الخبر بصورة عجيبة !

فما كانوا يقاتلونهم إلا فى فى المستعمرات المحصنة فى أرض فلسطين !

فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولوا الأدبار كالجرذان، حتى لكأن هذه الآية نزلت فيهم ابتداء ، وسبحان العليم الخبير !

ملامح نفسية :

وتبقى الملامح النفسية الأخرى:

---

(١) هود: ٥٦ .

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾

على خلاف المؤمنين الذين تتضامن أجيالهم، وتجمعهم آصرة الإيمان، من وراء فواصل الزمان والمكان، والجنس والوطن والعشيرة:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾

والمظاهر قد تخدع ، فنرى تضامن الذين كفروا من أهل الكتاب فيما بينهم، ونرى عصبيتهم بعضهم لبعض، كما نرى تجمع المنافقين أحيانا فى معسكر واحد !

ولكن الخبر الصادق من السماء يأتينا بأنهم ليسوا كذلك فى حقيقتهم، إنما هو مظهر خارجى خادع !

وبين الحين والحين ينكشف هذا الستار الخداع، فيبدو من ورائه صدق الخبر فى دنيا الواقع المنظور، وينكشف الحال عن نزاع فى داخل المعسكر الواحد، قائم على اختلاف المصالح وتفرق الأهواء، وتصادم الاتجاهات !

وما صدق المؤمنون مرة ، وتجمعت قلوبهم على الله حقا ، إلا وانكشف المعسكر الآخر أمامهم ، عن هذه الاختلافات، وهذا التضارب، وهذا الرياء الذى لايمثل حقيقة الحال !

وما صبر المؤمنون وثبتوا إلا وشهدوا مظهر التماسك بين أهل الباطل ينفسخ وينهار، وينكشف عن الخلاف الحاد، والشقاق والكيد، والدس فى القلوب الشتيتة المتفرقة !

إنما ينال المنافقون والذين كفروا من أهل الكتاب .. من المسلمين .. عندما تتفرق قلوب المسلمين، فلا يعودون يمثلون حقيقة المؤمنين التى عرضتها الآيات السابقة فى هذه الصورة :

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ

سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١) .

فأما فى غير هذه الحالة فالمنافقون أضعف وأعجز، وهم الذين كفروا من أهل الكتاب متفرفو الأهواء والقلوب :

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾

والقرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة فى قلوب المؤمنين، ليهوّن فيها من شأن أعدائهم، ويرفع منها هيبة هؤلاء الأعداء ورهبتهم. فهو إيحاء قائم على حقيقة، وتعبئة روحية ترتكن إلى حق ثابت .

ومتى أخذ المسلمون قرآنهم مأخذ الجد هان عليهم أمر عدوهم وعدو والله ، وتجمعت قلوبهم فى الصف الواحد، فلم تقف لهم قوة فى الحياة.

والمؤمنون بالله ينبغى لهم أن يدركوا حقيقة حالهم وحال أعدائهم. فهذا نصف المعركة. والقرآن يطلعهم على هذه الحقيقة فى سياق وصفه لحادث وقع، وفى سياق التعقيب عليه، وشرح ما وراءه من حقائق ودلائل، شرحا يفيد منه الذين شهدوا ذلك الحادث بعينه، ويتدبره كل من جاء بعدهم وأراد أن يعرف الحقيقة من مصدرها الحقيقى !

بين بنى قينقاع وبنى النضير :

ولم يكن حادث بنى النضير هو الأول من نوعه ، فقد سبقه حادث بنى قينقاع ـ كما عرفنا ـ وهو الذي تشير إليه الآية التالية، كما قال ابن عباس، وقتادة، ومحمد بن إسحاق قال ابن كثير وهذا القول أشبه بالصواب : (٢) .

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

فهذه هى الواقعة التى يشير إليها القرآن الكريم، فإن يهود بنى قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا، ويقيس عليها حال بنى النضير وحقيقتهم .. وحال المنافقين مع هؤلاء وهؤلاء !

«كمثل الشيطان» :

ويضرب للمنافقين الذين أغروا إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب بالمقاومة، فانتهوا بهم إلى تلك النهاية البائسة .. يضرب لهم مثلا بحال دائمة .. حال الشيطان مع

---

(١) الحشر : ٨ ـ ١٠.
(٢) تفسير ابن كثير : ٤ : ٣٤٠ بتصرف .

الإنسان، الذى يستجيب لإغرائه ، فينتهى وإياه إلى شر مصير :

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وصورة الشيطان هنا ودوره مع من يستجيب له من بنى الإنسان، تتفقان مع طبيعته ومهمته، فأعجب العجب أن يستمع إليه الإنسان. وحاله هو هذا الحال !

وهى حقيقة دائمة ينتقل السياق القرآنى إليها من تلك الواقعة العارضة، فيربط بين الحادث المفرد والحقيقة الكلية، فى مجال حىّ من الواقع ، ولا ينعزل بالحقائق المجردة فى الذهن ، فالحقائق المجردة الباردة لاتؤثر فى المشاعر، ولا تستجيش القلوب للاستجابة .

منهج القرآن فى خطاب القلوب :

وهذا فرق مابين منهج القرآن فى خطاب القلوب ، ومنهج الفلاسفة والدارسين والباحثين!

وبهذا المثل الموحى تنتهى قصة بنى النضير، وقد ضمت فى ثناياها وفى أعقابها هذا الحشد من الصور والحقائق والتوجيهات ، واتصلت أحداثها المحلية الواقعة بالحقائق الكبرى المجردة الدائمة، وكانت رحلة فى عالم الواقع وفى عالم الضمير، تمتد إلى أبعد من حدود الحادث ذاته، وتفترق روايتها فى كتاب الله عن روايتها فى كتب البشر، بمقدار ما بين صنع الله وصنع البشر من فوارق لا تقاس !

إجلاؤهم :

يروى الحاكم بسند صحيح عن عائشة رضى الله عنها قالت :

كانت غزوة بنى النضير وهم طائفة من اليهود، على رأس ستة أشهر ،من وقعة بدر، وكان منزلهم ونخلهم فى ناحية المدينة، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال ، إلا الحلقة « يعنى السلاح » فأنزل الله فيهم :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ ﴾ (١) .

---

(١) الحشر : ١ ـ ٢ .

فقاتلهم النبى ﷺ ، حتى صالحهم على الجلاء، فأجلاهم إلى الشام، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا وكان الله قد كتب عليهم ذلك، ولولا ذلك لعذبهم فى الدنيا بالقتل والسبى، وأما قوله: « لأول الحشر » فكان جلاؤهم ذلك أول حشر فى الدنيا إلى الشام (١) .

حقيقة إيمانية :

وتطالعنا سورة الحشر بهذه الحقيقة التى وقعت وكانت فى الوجود، حقيقة تسبيح كل شىء فى السموات، وكل شىء فى الأرض لله، والاتجاه إليه بالتنزيه والتمجيد .. تفتتح السورة التى تقص قصة إخراج الله لهؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم، وإعطائها للمؤمنين به، المسبحين بحمده، الممجدين لأسمائه الحسنى : (٢) .

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (٣)

القوى القادر على نصر أوليائه وسحق أعدائه .. الحكيم فى تدبيره وتقديره .. ثم يقص نبأ الحادث الذى نزلت فيه السورة .

« هو الذى أخرج الذين كفروا » :

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (٤) .

ومن هذه الآيات نعلم أن الله هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر. والله هو فاعل كل شىء ، ولكن صيغة التعبير تقرر هذه الحقيقة فى صورة مباشرة توقع فى الحس أن الله تولى هذا الإخراج من غير ستار لقدرته من فعل البشر !

---

(١) المستدرك : ٢: ٤٨٣ وقال : صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبى .

(٢) فى ظلال القرآن : ٦: ٣٥٢١ وما بعدها بتصرف .

(٣) الحشر : ١ .

(٤) الحشر : ٢ ـ ٤ .

وساق المخرَجِين للأرض التى منها يحشرون ، فلم تعد لهم عودة إلى الأرض التى أخرجوا منها .

ويؤكد فعل الله المباشر فى إخراجهم وسوقهم بالفقرة التالية فى الآية:

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾

فلا أنتم كنتم تتوقعون خروجهم، ولا هم كانوا يسلّمون فى تصور وقوعه !

فقد كانوا من القوة والمنعة فى حصونهم، بحيث لا تتوقعون أنتم أن تخرجوهم منها كما أخرجوا، وبحيث غرتهم هذه المنعة، حتى نسوا قوة الله التى لاتردها الحصون !

﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ﴾

أتاهم من داخل أنفسهم ! لا من داخل حصونهم !

أتاهم من قلوبهم ، فقذف فيها الرعب، ففتحوا حصونهم بأيديهم !

وأراهم أنهم لايملكون ذواتهم، ولا يحكمون قلوبهم، ولا يمتنعون عن الله بإرادتهم وتصميمهم!

فضلا على أن يمتنعوا عليه ببنيانهم وحصونهم . وقد كانوا يحسبون حساب كل شيء إلا أن يأتيهم الهجوم من داخل كيانهم. فهم لم يحتسبوا هذه الجهة التى أتاهم الله منها. وهكذا حين يشاء الله أمرا .. يأتى له من حيث يعلم ، ومن حيث يقدر، وهو يعلم كل شيء وهو على كل شيء قدير .

فلا حاجة إذن إلى سبب ولا إلى وسيلة، مما يعرفه الناس ويقدرونه. فالسبب حاضر دائما ، والوسيلة مهيأة، والسبب والنتيجة من صنعه، والوسيلة والغاية من خلقه، ولن يمتنع عليه سبب ولا نتيجة، ولن يعز عليه وسيلة ولا غاية .. وهو العزيز الحكيم ..

ولقد تحصن الذين كفروا من أهل الكتاب بحصونهم، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب !

ولقد امتنعوا بدورهم وبيوتهم، فسلط الله عليهم هذه الدور والبيوت يخربونها بأيديهم، ويمكنون المؤمنين من إخرابها !

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾

« فاعتبروا يا أولى الأبصار » :

وبهذا تتم حكاية ما وقع للذين كفروا من أهل الكتاب، في تلك الصورة الموحية، وهذه الحركة المصورة .. والله سبحانه يأتيهم من وراء الحصون فتسقط بفعلهم هم، ثم يزيدون فيخربونها بأيديهم وأيدى المؤمنين !

هنا يجيء أول تعقيب في ظل هذه الصورة، وعلى إيقاع هذه الحركة :

﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ .

وهو هتاف يجيء فى مكانه وفى أوانه. والقلوب متهيئة للعظة، متفتحة للاعتبار .

مصائر المشاقين لله :

والآية التالية تقرر أن إرادة الله فى النكاية بهم ما كانت لتعفيهم بأية حالة من نكال يصيبهم فى الدنيا، وغير ما ينتظرهم فى الآخرة :

﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾

فهو أمر مقرر أن ينالهم النكال من الله .. ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم عذابا آخر غير عذاب النار الذى ينتظرهم هناك. فقد استحقوا عذاب الله فى صورة من صوره على كل حال !

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

وهو موقف فيه تبجح قبيح، حين يقف المخاليق فى وجه الخالق يشاقونه!

وموقف كذلك رعيب، وهذه المخاليق الضئيلة الهزيلة تتعرض لغضب الله وعقابه. وهو شديد العقاب .

وهكذا تستقر في القلوب حقيقة مصائر المشاقين لله فى كل أرض وفى كل وقت ، وفى كل جيل وفى كل قبيل، من خلال مصير الذين كفروا من أهل الكتاب، وما استحقوا به هذا العقاب.

« الذين كفروا من أهل الكتاب » :

ولا يفوتنا أن نلحظ تسمية القرآن ليهود بنى النضير بأنهم :

وتكرار هذه الصفة في السورة. فهي حقيقة؛ لأنهم كفروا بدين الله في صورته العليا، التي جاء بها محمد ﷺ ، وقد كان اليهود ـ كما عرفنا ـ ينتظرونها، وذكر هذه الصفة في الوقت نفسه يحمل بيانا بسبب التنكيل بهم، كما أنه يعبيء شعور المسلمين تجاههم تعبئة روحية، تطمئن لها قلوبهم فيما فعلوا معهم، وفيما حل بهم من نكال وعذاب أليم ، فذكر هذه الحقيقة هنا ملحوظ !

تقطيع النخل وتحريقه :

ثم يطمئن الله المؤمنين على صواب ما أوقعوه بهؤلاء الذين كفروا وشاقوا الله ورسوله، من تقطيع نخيلهم وتحريقه، أو تركه كذلك قائما، وبيان حكم الله فيه. وقد دخل نفوس المسلمين شيء من هذا :

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [1] .

يروى الشيخان عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ حرّق نخل بنى النضير، قال : ولها يقول حسان بن ثابت :

وهان على سراة بنى لؤىّ ... حريق بالبويرة مستطير

قال : فأجابه أبو سفيان بن الحارث :

أدام الله ذلك من صنيع ... وحرق في نواحيها السعير

ستعلم أينا منهـا بنـزه ... وتعلم أى أرضينا تضير [2] .

يقول القرطبى : وذلك أن النبى ﷺ لما نزل على حصون بنى النضير [3] ـ وهى البويرة ـ يقول ابن حجر [4] : مصغر بؤرة، وهى الحفرة، وهى هنا مكان معروف بين المدينة وبين تيماء، وهى من جهة قبلة مسجد قباء إلى جهة الغرب، ويقال لها أيضا: البويلة، باللام بدل الراء حين نقضوا العهد .. [4] أمر بقطع نخيلهم وإحراقها. واختلفوا فى عدد ذلك، فقال قتادة والضحاك: إنهم قطعوا من نخليهم وأحرقوا ست نخلات، وقال محمد بن إسحاق : إنهم

---

(١) الحشر : ٥ . (٢) البخارى : ٦٤ ـ المغازى (٤٠٣٢) ، ومسلم : ٣٢ ـ الجهاد ٣٠ (ت١٧٤٦) .

(٣) تفسير القرطبى : ١٨ : ٦ بتصرف . (٤) فتح البارى : ٧: ٣٣٣ .

قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة. ،وكان ذلك عن إقرار رسول الله ﷺ أو بأمره، إما لإضعافهم بها، وإما لسعة المكان بقطعها، فشق ذلك عليهم فقالوا ـ وهم يهود أهل الكتاب ـ :

يامحمد ، ألست تزعم أنك نبي تريد الصلاح ، أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر ؟

وهل وجدت فيما أنزل الله عليك إباحة الفساد في الأرض ؟

فشق ذلك على النبي ﷺ . ووجد المؤمنون في أنفسهم،حتى اختلفوا، فقال بعضهم: لا تقطعوا مما أفاء الله علينا. وقال بعضهم: اقطعوا لنغيظهم بذلك. فنزلت الآية بتصديق من نهى عن القطع، وتحليل من قطع من الإثم، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله .

وقد روى النسائي (١) عن ابن عباس في هذ الآية، قال: يستنزلونهم من حصونهم ، وأمروا بقطع النخل، فحاك في صدورهم، فقال المسلمون: قطعنا بعضا وتركنا بعضا، فلنسألن رسول الله ﷺ ،هل لنا فيما قطعنا من أجر ؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله: ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾.

وروى أبو يعلى عن جابر قال : رخص لهم في قطع النخل، ثم شدد عليهم، فأتوا النبي ﷺ فقالوا: يارسول الله ! علينا إثم فيما قطعنا أو علينا وزر فيما تركنا، فأنزل الله عزوجل الآية (٢) .

قلت : وقد استدل عامة العلماء بذلك ، وفي هذا تحقيق المصلحة وتلمس السبيل إليها، لأن الحكم الشرعي في ذلك منوط بما يراه الإمام من مصلحة النكاية بأعداء المسلمين (٣) .

الشعر في هذه الغزوة :

قال ابن إسحاق : وقال كعب بن مالك يذكر إجلاء بني النضير ، وقتل كعب بن الأشرف:

لقد خزيت بغدرتها الحبور (٤) كذاك الدهر ذو صرف يدور

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤: ٣٣٣.

(٢) انظر : خاتم النبيين : ٢: ٨٩٤ وما بعدها .

(٣) انظر : الأم : ٧: ٣٥٦ .

(٤) جمع حبر، وهم علماء اليهود .

وذلك أنهم كفروا بربّ | عظيم أمره أمر كبير
وقد أوتوا معا فهما وعلما | وجاءهمُ من الله النذير
نذير صادق أدى كتابا | وآيات مبينة تنير
فقالوا ما أتيت بأمر صدق | وأنت بمنكر منا جدير
فقال بلى لقد أديت حقا | يصدقنى به الفهم الخبير
فمن يتبعه يهد لكل رشد | ومن يكفر به يخز الكفور
فلما أشربوا غدرا وكفرا | وجد بهم عن الحق النفور
أرى الله النبى برأى صدق | وكان الله يحكم لا يجور
فأيده وسلطه عليهم | وكان نصيره نعم النصير
فغودر منهم كعب صريعا | فذلت بعد مصرعه النضير
على الكفين ثم وقد علته | بأيدينا مشهرة ذكور
بأمر محمد إذ دس ليلا | إلى كعب أخا كعب يسير
فماكره فأنزله بمكر | ومحمود أخو ثقة جسور
فتلك بنو النضير بدار سوء | أبارهم [1] بما اجترموا المبير
غداة أتاهم فى الزحف رهوا [2] | رسول الله وهو بهم بصير
وغسان الحماة مؤازروه | على الأعداء وهو لهم وزير
فقال السلم ويحكم فصدوا | وخالف أمرهم كذب وزور
فذاقوا غِبَّ أمرهم وبالا | لكل ثلاثة منهم بعير
وأجلُوا عامدين لقينقاع | وغودر منهمُ نخل ودور

وكان مما قيل فى بنى النضير قول ابن لُقَيْم العبسى، ويقال: قاله قيس بن بحر بن طريف الأشجعى:

أهلى فداء لامرىء غير هالك | أحل اليهود بالحسىّ المزنّم [3]

(١) أبارهم: أهلهم.
(٢) رهوا: سيرا سهلا.
(٣) الحسى: ما يحسى من الطعم، والمزنّم: الرجل يكونّ فى القوم ليس منهم يريد: أحلهم بأرض غربة فى غير عشائرهم.

يقيلون فى جمر العضاه وبدّلوا | أهيضب عُودى بالودىّ المكمّم (١)
فإن يك ظنى صادقا بمحمد | تروا خيله بين الصّلا ويرمرم (٢)
يؤم بها عمرو بن بُهْثَة إنهم | عدوّ وما حىّ صديق كمجرم
عليهن أبطال مساعير فى الوغى | يهزون أطراف الوشيج المقوّم (٣)
وكلّ رقيق الشفرتين مهنّد | تووِرثْن من أزمان عاد وجرهم
فَمَن مُبلغ عنى قريشا رسالة فهل | بعدهم فى المجد من متكرّم
بأن أخاهم فاعلمّن محمدا | تليد الندى بين الحجون وزمزم
فد ينوا له بالحق تجسم أموركم | وتسمو من الدنيا إلى كل معظم
نبىّ تلافته من الله رحمة | ولا تسألوه أمر غيب مرجّم
فقد كان فى بدر لَعمرى عِبرة | لكم ياقريش والقليب الململّم
غداة أتى فى الخزرجية عامدا | إليكم مطيعا للعظيم المكرّم
معانا بروح القدس ينكَى عدوّه | رسولا من الرحمن حقا بمعلم
رسولاً من الرحمن يتلو كتابه | فلما أنار الحق لم يتلعثم
أرى أمره يزداد فى كل موطن | علوّا لأمر حمّه الله محكم (٤)

وهكذا جاء البيان يربط الفعل والترك بإذن الله، أراد به أن يخزى الفاسقين . وقطع النخيل يخزيهم بالحسرة على قطعه، وتركه يخزيهم بالحسرة على فوته، وإرادة الله وراء هذا وذاك على السواء .

وبهذا تستقر قلوب المؤمنين المتحرجة، وتشفى صدروهم مما حاك فيها، وتطمئن إلى حكم الله عزوجل .

---

(١) العضاة: شجر. وأهيضب: مكان مرتفع. والودى: صغار النخل. والمكمم: الذى خرج كمامه.
(٢) الصلا: موضع. ويرمرم : جبل. (٣) الوشيج: شجر الرماح.
(٤) السيرة النبوية لا بن كثير : ٣: ١٥٠ _ ١٥٢ وانظر الروض الأنف : ٣: ٢٤٢ _ ٢٤٤ وتفسير ابن كثير : ٤ : ٣٣٤ .

حكم الفئ :

ويأتى بعد هذه الآيات التى نزلت فى شأن بنى النضير، وعشنا فى رحابها، قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[1] .

يروى الشيخان عن مالك بن أوس، عن عمر رضى الله عنه، قال:

« كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله ﷺ ، مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خاصة، ينفق على أهله منها نفقة سنته، ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع عدّة فى سبيل الله»[2] .

والفيء ــ كما يقول ابن كثير[3] ــ كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولاركاب، كأموال بنى النضير هذه، فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولاركاب، أى لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة، بل نزل أولئك من الرعب الذى ألقى الله فى قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ، فأفاء الله على رسوله، ولهذا تصرف فيه كما يشاء، فرده على المسلمين فى وجوه البر والمصالح التى ذكرها فى هذه الآيات، فقال:

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ ﴾

أى من بنى النضير

﴿ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾

يعنى الإبل :

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

---

(١) الحشر : ٦ ــ ٧ .

(٢) البخارى : ٦٥ ــ التفسير (٤٨٨٥) ، ومسلم : ٣٢ ـ الجهاد ٤٨ (١٧٥٧) .

(٣) تفسير ابن كثير : ٤: ٣٣٥، وانظر تفسير القرطبى : ١٨: ١٤ وما بعدها ، تفسير الطبري : ٢٨: ٣٥ وما بعدها .

أى قدير لايغالب ولا يمانع، بل هو القادر لكل شىء، ثم قال تعالى:

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾

أى جميع البلدان التى تفتح هكذا، فحكمها حكم أموال بنى النضير، ولهذا قال تعالى:

﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾

إلى آخرها والتى بعدها، فهذه مصارف أموال الفىء ووجوهه.

حقيقة ضخمة:

وهذه الآيات (١) تحوى فى الوقت ذاته وصفا لأحوال الجماعة المسلمة في حينها، كما تقرر طبيعة الأمة المسلمة على توالى العصور، وخصائصها المميزة التى تترابط بها وتتماسك، على مدار الزمان، لا ينفصل فيها جيل عن جيل، ولاقوم عن قوم، ولا نفس عن نفس، فى الزمن المتطاول بين أجيالها المتعاقبة في جميع بقاع الأرض. وهى حقيقة ضخمة كبيرة، ينبغى الوقوف أمامها طويلا فى تدبر عميق..

التنظيم الاقتصادى:

كما تعلل هذه القسمة، فتضع قاعدة كبرى من قواعد التنظيم الاقتصادى والاجتماعى فى المجتمع الإسلامى:

﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾

وهى تمثل جانبا كبيرا من أسس النظرية الاقتصادية فى الإسلام فالملكية الفردية معترف بها فى هذه النظرية. ولكنها محددة بهذه القاعدة، قاعدة ألا يكون المال دولة بين الأغنياء ممنوعا من التداول بين الفقراء. فكل وضع ينتهى إلى أن يكون المال دولة بين الأغنياء وحدهم هو وضع يخالف النظرية الاقتصادية الإسلامية، كما يخالف هدفا من أهداف التنظيم الاجتماعى كله. وجميع الارتباطات والمعاملات فى المجتمع الإسلامى يجب أن تنظم بحيث لاتخلق مثل هذا الوضع أو تبقى عليه إن وجد.

ولقد أقام الإسلام بالفعل نظامه على أساس هذه القاعدة. ففرض الزكاة. وجعل حصيلتها محددة، وجعل للإمام الحق فى أن يأخذ فضول أموال الأغنياء فيردها على

(١) فى ظلال القرآن: ٦: ٣٥٢٣ وما بعدها بتصرف.

الفقراء، وحرم الاحتكار، وحظر الربا، وهما الوسيلتان الرئيستان لجعل المال دولة بين الأغنياء، وهما أيضا من أساليب يهود، ومحاولة سيطرتهم على توجيه الأنظار إليهم عن هذا السبيل !

ومن ثم كانت هذه الآيات التى نزلت فى شأن بنى النضير تحتوى على هذه التوجيهات فى هذا المقام .

وكان النظام الإسلامى بهذه الخصائص، فليس هو النظام الرأسمالى، وليس هو النظام الاشتراكى، إنما هو نظام إسلامى من لدن حكيم خبير. نشأ وحده، وصار وحده ، وبقى حتى اليوم وحده، نظاما فريدا متوازن الجوانب، متعادل الحقوق والواجبات، متناسقا تناسق الكون كله، منذ كان صدوره عن خالق الكون، والكون كله متناسق موزون .

النظرية الدستورية :

وتأتى قاعدة تلقي الشريعة من مصدر واحد :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

فهى كذلك تمثل النظرية الدستورية الإسلامية. فسلطان القانون فى الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قرآنا وسنة. والأمة كلها والإمام معها لاتملك أن تخالف عما جاء به الرسول . فإذا شرعت ما يخالفه لم يكن لتشريعها هذا من سلطان ؛ لأنه فقد السند الأول الذى يستمد منه السلطان .

وهذه النظرية تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية، بما فيها تلك التى تجعل الأمة مصدر السلطات ، بمعنى أن للأمة أن تشرع لنفسها ماتشاء ، وكل ماتشرعه فهوذو سلطان، فمصدر السلطات فى الإسلام هو شرع الله الذى جاء به الرسول الحبيب المحبوب ﷺ.

والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها، والإمام نائب عن الأمة فى هذا المجال.

وفى هذا تنحصر حقوق الأمة. فليس لها أن تخالف عما آتاها الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فى أى تشريع .

فأما حين لاتوجد نصوص فيما جاء به الرسول بخصوص أمر يعرض للأمة ، فسبيلها أن تشرع له بما لايخالف أصلا من أصول ماجاء به الرسول. وهذا لا ينقض تلك النظرية، إنما هو فرع عنها . فالمرجع فى أى تشريع هو أن يتبع ما جاء به الرسول إن كان هناك نص. وألا يخالف أصلا من أصوله فيما لانص فيه .

وتنحصر سلطة الأمة، والإمام نائب عنها، فى هذه الحدود، وهو نظام فريد، لا يماثله نظام آخر مما عرفته البشرية من نظم وضعية.

وهو نظام يربط التشريع للناس بناموس الكون كله، ومن ثم كان مفتتح هذه السورة التى نزلت فى حادث بنى النضير من اليهود بحقيقة تسبيح كل شىء فى السماوات وكل شىء فى الأرض لله ــ كما عرفنا ـ وينسق بين ناموس الكون الذى وضعه الله له والقانون الذى يحكم البشر، وهو من الله، كى لايصدم قانون البشر بناموس الكون، فيشقى الإنسان أو يتحطم أو تذهب جهوده أدراج الرياح !

وتربط الآية هاتين القاعدتين فى قلوب المؤمنين بالأمر بالتقوى والخوف من عقاب الله:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

من أسلم من بنى النضير :

قال ابن إسحاق : ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان : يامين بن عمير، أبو كعب بن عمرو بن جحّاش، وأبو سعد بن وهب، أسلما على أموالهما فأحرزاها [١] .

وقال ابن حجر [٢] : أبو سعْد بن وهب النضرى (بفتح الضاد المعجمة) من بنى النضير، أخوه قريظة.

وقال : وأخرج له ابن سعد حديثا .. ووقع فى كلام أبى عمر أنه نزل إلى النبى ﷺ يوم قريظة ، وهو خطأ ، تعقبه الرشاطى، فإن قصة بنى النضير متقدمة على قصة بنى قريظة بمدة طويلة .

قصة قتل :

وقال ابن حجر [٣] : يامين بن عمير بن كعب، أبو كعب النضري .. ذكره أبو عمر فقال: كان من كبار الصحابة، أسلم فأحرز ماله من بنى النضير غيره، وغير أبى سعيد بن عمرو بن وهب فأحرزا أموالهما، قال ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم .

---

(١) الروض الأنف : ٣: ٢٤١، والإصابة : ٨٣ .

(٢) الإصابة: ٧: ٨٣ ـ٨٤ وانظر : ٩٦ حيث نقل عن ابن الأثير أنه (أبو سعيد بن وهب القرظى) وقال : كذا ذكره ابن الأثير فوهم فى الكنية، وإنما هو أبو سعْد ـ كما تقدم ـ وهو النضري، من بنى النضيرلا من بنى قريظة .

(٣) المرجع السابق : ٦: ٣٣٣ .

وقال ابن إسحاق أيضا : بلغنى أن يامين بن كعب لقى أبا ليلي عبد الرحمن بن كعب، وعبد الله بن مغفل، وهما يبكيان، فقالا : لم نجد عند النبى ﷺ ما يحملنا عليه، فأعطاهما ناضحا. وقال ابن إسحاق: حدثنى بعض آل يامين أن النبى ﷺ قال ليامين: ألم تر إلى ابن عمك عمرو بن جحاش، وما هم به من قتلى . يعنى فى قصة بنى النضير، وكان أراد أن يلقى على النبى ﷺ رحى فيقتله، فأنذره جبريل، فقام من مكانه ذلك ـ كما سبق ـ فجعل يامين لرجل جعلا على أن يقتل عمرو بن حجاش فقتله .

قلت : قال ابن إسحاق (١) : فقتله فيما يزعمون !

وقد آثرت ذكر هذا العنوان : « قصة قتل » لأن سندها هكذا !، ولأن ابن إسحاق ذكر فى آخرها «فيما يزعمون» وتلك طبيعة اليهود.

هكذا كان إجلاؤهم:

وهكذا كان إجلاء طائفة أخرى من اليهود، بسبب خرقها الميثاق، وخفرها الذمة، وخيانتها الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ، وتآمرها على قتله أكثر من مرة ـ كما عرفنا ـ وهو كما نرى منتهى العدل الذى لم تعرفه الدنيا فى تاريخها الطويل إلا فى هذا الدين القيم .

وهكذا نزلت سورة الحشر، وهى سورة بنى النضير، التى عشنا فى رحابها، كما روى البخارى عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر ، قال : قل سورة النضير (٢) .

أضف إلى تآمرهم على قتل النبى ماكان منهم قبل ذلك ـ كما عرفنا ـ من مواقف مشاقة مؤذية ومزعجة طفح بها الكيل، وحق عليهم من أجلها التنكيل .

---

(١) الروض الأنف : ٢: ٢٤١.

(٢) البخارى : ٦٤ ـ المغازى (٤٠٢٩) .

الفصل الثانى

قتال أهل الكتاب

هدى النبى ﷺ ـ الأمر بالقتال ـ صور ومواقف ـ حقيقة ماعليه أهل الكتاب ـ المنهج الواقعى لهذا الدين ـ بين أهل الكتاب ـ والمجتمع المسلم ـ وحدة هدف ـ واقع تاريخى ـ من أقوالهم ـ الجزية على ضآلتها فرصة اجتماعية للموادعة والتأمل ـ عروة فى عهد بالحماية ـ أين الإكراه والقهر فى نظام الجزية ؟ ـ من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ ـ وسيلة عملية ـ ضلال عقيدة أهل الكتاب ـ المستقبل للإسلام ـ هؤلاء هم أهل الكتاب .



هدى النبي ﷺ :

لقد كان ماحدث من اليهود كافيا لحمل من بقى منهم بجوار المدينة على التفكير فيما هم فيه ولكنهم تعجلوا الشر فباءوا به .. ومن ثم كان القتال ضرورة .

وقد لخص ابن القيم ترتيب سياق هدى النبي مع هؤلاء ومن على شاكلتهم من الكفار والمنافقين، من حين بعث إلى حين لقى الله عزوجل، فقال (١) :

أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى : أن يقرأ باسم ربه الذى خلق :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٢)

وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ فى نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ ، ثم أنزل عليه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ (٣).

فنبأه بقوله: «اقرأ» وأرسله بـ « يأيها المدثر » .

ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) .

ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين :

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٥)

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٦) .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولاجزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح .

---

(١) زاد المعاد : ٣ : ١٥٨ بتصرف . (٢) العلق : ١ ـ ٥ . (٣) المدثر : ١ ، ٢ .

(٤) الشعراء: ٢١٤ ، ٢١٥ . (٥) الحجر : ٩٤ . (٦) الأعراف : ١٥٨ .

(٧) الأنبياء : ١٠٧ .

قال ابن تيمية (١) : وكان الله لما بعث نبيه وأمره بدعوة الخلق إلى دينه لم يأذن له فى قتل أحد على ذلك ولا قتاله، حتى هاجر إلى المدينة، فأذن له وللمسلمين فى قوله:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (٢)

وقال ابن القيم : (٣) فلما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة، وأيده الله بنصره، بعباده المؤمنين الأنصار ، وألف بين قلوبهم بعد العداوه والإحنة التى كانت بينهم، فمنعته الأنصار وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه، وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج وكان أولى بهم من أنفسهم ، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة، وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب، والله سبحانه وتعالى يأمرهم بالصبر والعفو والصفح، حتى قويت الشوكة، واشتد الجناح، فأذن لهم حينئذ فى القتال ، ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾

وقد قالت طائفة: إن هذا الإذن كان بمكة والسورة مكية، وهذا غلط لوجوه :

أحدها : أن الله لم يأذن بمكة لهم فى القتال ، ولا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة .

الثانى : أن سياق الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة، وإخراجهم من ديارهم، فإنه قال:

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ (٤)

وهؤلاء هم المهاجرون .

الثالث : قوله تعالى :

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ (٥)

نزلت فى الذين تبارزوا يوم بدر من الفريقين (٦) .

الرابع : أنه خاطبهم فى آخرها بقوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (٧) .

---

(١) السياسة الشرعية : ٥٦ (٢) الحج : ٣٩ . (٣) زاد المعاد : ٣: ٦٩ بتصرف .
(٤) الحج : ٤٠ . (٥) الحج : ١٩ .
(٦) البخارى : ٦٥ ـ التفسير (٤٧٤٣) ، (٤٧٤٤) . (٧) الحج :٧٧ .

والخطاب بذلك كله مدنى، فأما الخطاب « يأيها الناس » فمشترك .

الخامس : أنه أمر فيها بالجهاد الذي باليد وغيره، ولاريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأما جهاد الحجة فأمر به فى مكه بقوله :

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (١) .

فهذه سورة مكية، والجهاد فيها هو التبليغ، وجهاد الحجة، وأما الجهاد المأمور به فى سورة الحج فيدخل فيه الجهاد بالسيف .

السادس : أن الحاكم روى عن ابن عباس قال : لما أخرج أهل مكة النبى ﷺ قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : « إنا لله وإنا إليه راجعون » أخرجوا نبيهم، ليهلكن ، قال فنزلت :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾

قال أبو بكر الصديق : فعلمت أنها قتال، قال ابن عباس : وهى أول آية نزلت فى القتال.

قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبى . (٢) وهو كما قالا .

قال ابن القيم: ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال :

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ (٣) .

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة،وكان محرما، ثم مأذونا به، ثم مأمورا به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورا به لجميع المشركين، إما فرض عين على أحد القولين، أو فرض كفاية على المشهور .

وبمثله قال العلماء (٤) .

قال ابن القيم: ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام (٥) :

أهل صلح وهدنة.

وأهل حرب .

وأهل ذمة .

---

(١) الفرقان : ١٥٢ . (٢) المستدرك :٢: ٦٦ . (٣) البقرة :١٩٠ .

(٤) انظر : الأم : ٤ : ١٥٩ وما بعدها ،والمبسوط : ١٢:١. (٥) زاد المعاد: ٣: ١٥٩ بتصرف .

فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفى لهم به، ماستقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة، نبذ إليهم عهدهم، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد، وأمر بأن يقاتل من نقض عهده .

ولما نزلت « سورة براءة » نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية،أو يدخلوا فى الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة والبيان .

وأمره فيها بالبراءه من عهود الكفار ، ونبذ عهودهم إليهم، وجعل أهل العهد فى ذلك ثلاثة أقسام:

قسما أمره بقتالهم ، وهم الذين نقضوا عهده، ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم.

وقسما لهم عهد مؤقت لم ينقضوه، ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم .

وقسما لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر ، فإذا انسلخت قاتلهم، وهى الإشهر الأربعة المذكورة فى قوله:

﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾[1] .

وهى الحرم المذكورة فى قوله:

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾[2] .

فالحرم هاهنا: هى أشهر التسيير ، أولها يوم الأذان، وهو اليوم العاشر من ذى الحجة، وهو يوم الحج الأكبر الذى وقع فيه التأذين بذلك، وآخرها العاشر من ربيع الآخر، وليست هى الأربعة المذكورة فى قوله:

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾[3] .

فإن تلك واحد فرد، وثلاثة سرد[4] : رجب ، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم ، ولم يسير المشركين فى هذه الأربعة، فإن هذا لايمكن ، لأنها غير متوالية، وهو إنما أجلهم

---

(١) التوبة : ٢ . (٢) التوبة :٥ . (٣) التوبة : ٣٦ .

(٤) انظر تفسير ابن كثير : ٢: ٣٣٥ ففيه أقوال المفسرين فى المراد بالأشهر .

أربعة أشهر، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم، فقتل الناقض لعهده، وأجل من لا عهد له، أو له عهد مطلق أربعة أشهر، وأمره أن يتم للموفى بعهد عهده إلى مدته، فأسلم هؤلاء كلهم، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم، وضرب على أهل الذمة الجزية ..

فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءه على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد. وأهل ذمة، ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين، وأهل ذمة.

والمحاربون له خائفون منه.

فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام:

مسلم مؤمن به.

ومسالم له آمن.

وخائف محارب.

وأما سيرته في المنافقين، فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأمره أن يعرض عنهم، ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهاه أن يصلي عليهم، وأن يقوم على قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم، فلن يغفر الله لهم، فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين.

الأمر بالقتال:

قال تعالى:

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ

(١) البخاري: ٦٤ ـ المغازي (٤٠٢٩).

﴿الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (١).

نقرأ هذه الآيات التى تعنى كل أهل الكتاب.. سواء منهم من كان فى الجزيرة ومن كان خارجها كذلك (٢).

نقرأ هذه الآيات لنرى الأحكام النهائية التى تتضمنها تحتوى تعديلات أساسية فى القواعد التى كانت تقوم عليها العلاقات من قبل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب ـ وبخاصة النصارى منهم ـ فلقد كانت وقعت المواقع قبل ذلك مع اليهود، ولكن حتى هذا الوقت لم يكن قد وقع منها شىء مع النصارى.

والتعديل البارز فى هذه الأحكام الجديدة هو الأمر بقتال أهل الكتاب المنحرفين عن دين الله، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.. فلم تعد تقبل منهم عهود موادعة ومهادنة إلا على هذا الأساس.. أساس إعطاء الجزية.. وفى هذه الحالة تتقرر لهم حقوق الذمى المعاهد، ويقوم السلام بينهم وبين المسلمين.. فأما إذا هم اقتنعوا بالإسلام عقيدة فاعتنقوه فهم من المسلمين إنهم لا يكرهون على اعتناق الإسلام. فالقاعدة الإسلامية المحكمة ـ كما أسلفنا ـ هى :

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (٣).

ولكنهم لا يتركون على ذلك إلا إذا أعطوا الجزية، وقام بينهم وبين المجتمع المسلم عهد على هذا الأساس.

وهذا التعديل الأخير فى قواعد التعامل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب لا يفهم على طبيعته إلا بالفقه المستنير لطبيعة العلاقات الحتمية بين منهج الله ومناهج الجاهلية من ناحية.. ثم لطبيعة المنهج الإسلامى، ومراحله المتعددة، ووسائله المتجددة المتكافئة للواقع البشرى المتغير من الناحية الأخرى.

وطبيعة العلاقة الحتمية بين منهج الله ومناهج الجاهلية هى عدم إمكان التعايش إلا فى

(١) التوبة : ٢٩ ـ ٣٥.
(٢) فى ظلال القرآن : ٣ : ١٦٢٠ وما بعدها بتصرف.
(٣) البقرة : ٢٥٦.

ظل أوضاع خاصة وشروط خاصة، قاعدتها ألا تقوم فى وجه الإعلان العام الذى يتضمنه الدين القيم لتحرير الإنسان بعبادة الله وحده، والخروج من عبادة البشر للبشر، أية عقبات مادية من قوة السلطان، ومن نظام الحكم، ومن أوضاع المجتمع على ظهر الأرض!

ذلك أن منهج الحق يريد أن يحكم، ليخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ـ كما هو الإعلان العام للإسلام ـ ومناهج الجاهلية تريد ـ دفاعا عن وجودها ـ أن تسحق الحركة المنطلقة بمنهج الحق فى الأرض، وتقضى عليها..

وطبيعة المنهج الإسلامى أن يقابل هذا الواقع البشرى بحركة مكافئة له ومتفوقة عليه، فى مراحل متعددة ذات وسائل متجددة.. والأحكام المرحلية والأحكام النهائية فى العلاقات بين المجتمع المسلم والمجتمعات الجاهلية تمثل هذه الوسائل فى تلك المراحل.

ومن أجل أن يحدد السياق القرآنى طبيعة هذه العلاقات، حدد حقيقة ما عليه أهل الكتاب، ونص على أنه «شرك» و «كفر» و «باطل» وقدم الوقائع التى يقوم عليها هذا الحكم، سواء من واقع معتقدات أهل الكتاب والتوافق والتضاهى بينها وبين معتقدات «الذين كفروا من قبل» أو من سلوكهم وتصرفهم الواقعى كذلك!

والنصوص الحاضرة تقرر:

أولا : أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

ثانياً : أنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله.

ثالثاً : أنهم لا يدينون دين الحق.

رابعاً : أن اليهود منهم قالت : عزير ابن الله. وأن النصارى منهم قالت: المسيح ابن الله . وأنهم فى هذين القولين يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، سواء من الوثنيين الإغريق، أو الوثنيين الرومان، أو الوثنيين الهنود، أو الوثنيين الفراعنة، أو غيرهم من الذين كفروا.. !

خامساً : أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله . كما اتخذوا المسيح ربا. وأنهم بهذا خالفوا عما أمروا به من توحيد الله والدينونه للحق وحده، وأنهم لهذا «مشركون»!

سادساً : أنهم محاربون لدين الله، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، وأنهم لهذا « **كافرون** » !

سابعاً : أن كثيرا من أحبارهم ورهبانهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله!

وعلى أساس هذه الأوصاف وهذا التحديد لحقيقة ما عليه أهل الكتاب، قرر الأحكام النهائية التى تقوم عليها العلاقات بينهم وبين المؤمنين بالدين القيم، القائمين على منهج الحق..

ولقد يبدو أن هذا التقرير لحقيقة ما عليه أهل الكتاب مفاجئ ومغاير للتقريرات السابقة عنهم، كما يحلو للمستشرقين والمبشرين وتلاميذهم أن يقولوا، زاعمين أن خاتم النبيين ﷺ قد غير أقواله وأحكامه عن أهل الكتاب ـ كما سبق أن ذكرنا ـ عندما أحس بالقوة والقدرة على منازلتهم !

ولكن المراجعة الموضوعية للتقريرات القرآنية ـ المكية والمدنية ـ عن أهل الكتاب، تظهر بجلاء أنه لم يتغير شيء فى أصل نظرة الإسلام إلى عقائد أهل الكتاب التى جاء فوجدهم عليها، وانحرافها وبطلانها، وشركهم وكفرهم بالدين القيم ـ حتى بما أنزل عليهم منه وبالنصيب الذى أوتوه من قبل ـ أما التعديلات فهى محصورة فى طريقة التعامل معهم.. وهذه تحكمها الأحوال والأوضاع الواقعية المتجددة.. أما الأصل الذى تقوم عليه ـ وهو حقيقة ما عليه أهل الكتاب ـ فهو ثابت منذ اليوم الأول فى حكم الله عليهم.

صور ومواقف :

ونذكر هنا بعض الأمثلة من التقريرات القرآنية عن أهل الكتاب وحقيقة ما هم عليه.. ثم نستعرض مواقفهم الواقعية من الإسلام وأهله، تلك المواقف التى انتهت إلى هذه الأحكام النهائية فى التعامل معهم:

فى مكة لم تكن توجد جاليات يهودية أو نصرانية ذات عدد أو وزن فى المجتمع .. إنما كان هناك أفراد، يذكر القرآن الكريم عنهم: أن منهم من استقبلوا الرسالة والرسول ﷺ بالفرح والتصديق والقبول، ودخلوا فى الإسلام، وشهدوا له ولرسوله بأنه الحق المصدق لما بين أيديهم.. ولا بد أن يكون هؤلاء ممن كان قد بقى على التوحيد من أهل الكتاب، وممن كان معهم شىء من بقايا الكتب المنزلة.. وفى أمثال هؤلاء وردت مثل هذه الآيات:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾[1].

---

(١) القصص: ٥٢ ، ٥٣ .

﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (١).

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (٢).

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (٣).

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (٤).

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾ (٥).

وقد تكررت هذه الاستجابة من أفراد كذلك فى المدينة ـ كما سبق ـ سجل القرآن الكريم عنهم بعض المواقف فى السور المدنية :

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (٦)

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ۝٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝٨٤ فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٧).

ولكن موقف هؤلاء الأفراد لم يكن يمثل موقف الغالبية من أهل الكتاب فى الجزيرة ـ ومن اليهود منهم بصفة خاصة ـ فقد جعل هؤلاء يشنون على الإسلام، منذ أن أحسوا

---

(١) الإسراء : ١٠٧ ـ ١٠٩ .　(٢) الأحقاف : ١٠ .　(٣) العنكبوت : ٤٧ .

(٤) الأنعام : ١١٤ .　(٥) الرعد : ٣٦ .

(٦) آل عمران : ١٩٩ .　(٧) المائدة : ٨٢ ـ ٨٥ .

خطره عليهم فى المدينة، حربا خبيثة، يستخدمون فيها ـ كما سبق ـ كل الوسائل التى سجلها القرآن الكريم عنهم فى آيات كثيرة، كما أنهم فى الوقت ذاته رفضوا الدخول فى الإسلام طبعا، وأنكروا وجحدوا ما فى كتبهم من البشارة بالرسول ﷺ، ومن تصديق القرآن لما بين أيديهم من بقايا كتبهم الحقة، مما كان أولئك الأفراد الطيبون يعترفون به ويقررونه ويجاهرون به فى وجه المنكرين الجاحدين!

حقيقة ما عليه أهل الكتاب:

كذلك أخذ القرآن الكريم يتنزل بوصف هذا الجحود وتسجيله، وبتقرير ما عليه أهل الكتاب هؤلاء من الانحراف والفساد والبطلان فى شتى السور المدنية.. على أن القرآن المكى لم يخل من تقريرات عن حقيقة ما عليه أهل الكتاب. نذكر من ذلك:

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٦٣ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦٤ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[(١)].

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾[(٢)].

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ۝١٦١ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ۝١٦٢ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[(٣)].

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(٤)].

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا

---

(١) الزخرف: ٦٣ ـ ٦٥.
(٢) الشورى: ١٤.
(٣) الأعراف: ١٦١ ـ ١٦٣.
(٤) الأعراف: ١٦٧.

فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[1].

أما القرآن المدنى فقد تضمن الكلمة الأخيرة فى حقيقة ما عليه أهل الكتاب، كما سجل عليهم أشنع الوسائل وأبشع الطرق فى حرب هذا الدين وأهله فى آيات كثيرة ـ عرضنا لبعضها من قبل ـ قبل أن يقرر الكلمة النهائية فى أمرهم كله فى تلك الآيات التى معنا...

وهنا نذكر بعض الآيات القرآنية الكثيرة فى هذا الشأن:

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[2].

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[4].

---

(١) الأعراف: ١٦٩.　　(٢) البقرة: ٧٥ ـ ٧٩.

(٣) البقرة: ٨٧ ـ ٩١.　　(٤) آل عمران: ٧٠ ـ ٧١.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١) .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ (٢) .

من مراجعة هذه النصوص وأمثالها مما ورد فى كثير من القرآن المكى والمدنى على السواء .. يتبين أن النظرة إلى حقيقة ما عليه أهل الكتاب من الانحراف عن دين الله لم يتغير فيها شىء فى التقريرات الأخيرة الواردة فى الآيات التى معنا .. وأن وصمهم بالانحراف والفسوق والشرك والكفر ليس جديدا، ولا يعبر عن اتجاه جديد فيما يختص بحقيقة الاعتقاد .. وذلك مع ملاحظة أن القرآن الكريم ظل يسجل للفريق المهتدى الصالح من أهل الكتاب هداه وصلاحه ـ كما سبق ـ فقال تعالى منصفا للصالحين منهم :

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (٣) .

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٤) .

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (٥) .

المنهج الواقعى لهذا الدين :

أما الذى وقع فيه التعديل فعلا فهو أحكام التعامل مع أهل الكتاب . فترة بعد فترة .

---

(١) آل عمران : ٩٨ ـ ٩٩. (٢) النساء : ٥١ ـ ٥٢ . (٣) الأعراف : ١٥٩ .
(٤) آل عمران : ٧٥ . (٥) آل عمران : ١١٢ ـ ١١٥ .

ومرحلة بعد مرحلة. وواقعة بعد واقعة وفق المنهج الواقعى لهذا الدين فى مواجهة أهل الكتاب وتصرفاتهم ومواقفهم مع المسلمين.

ولقد جاء زمان كان يقال فيه للمسلمين:

﴿ وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (١).

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (٢).

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٣).

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤).

ثم أتى بأمره الذى وكل المؤمنين إليه ، فوقعت أحداث ـ كما أسلفنا ـ وتعدلت أحكام، وجرى المنهج الواقعى الإيجابى فى طريقه ، حتى كانت هذه الأحكام النهائية الأخيرة، فى تلك الآيات التى معنا، على النحو الذى رأينا ..

إنه لم يتغير شيء فى نظرة هذا الدين إلى حقيقة ما عليه أهل الكتاب من فساد العقيدة، ومن الشرك بالله والكفر بآياته .. إنما الذى تغير هو قاعدة التعامل ..وهذه إنما تحكمها تلك الأصول التى نحن بصدد الحديث عنها ..

بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم :

والآن نأخذ فى شيء من استعراض طبيعة الموقف بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم، سواء من الناحية الموضوعية الثابتة، أو من ناحية المواقف التاريخية العامة .. فهذه هى

---

(١) العنكبوت : ٤٦ . (٢) البقرة : ١٣٦ ـ ١٣٧ .
(٣) آل عمران : ٦٤ . (٤) البقرة : ١٠٩ .

العناصر الرئيسة التى انتهت إليها هذه الأحكام النهائية ..

إن طبيعة الموقف بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم يجب البحث عنها :

أولا : فى تقريرات الحق عنها، باعتبار أن هذه هى الحقيقة النهائية ، التي لا يأيتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وباعتبار أن هذه التقريرات ـ بسبب كونها ربانية ـ لاتتعرض لمثل ماتتعرض له الاستنباطات والاستدلالات البشرية من الأخطاء ..

وثانيا : فى المواقف التاريخية المصدقة لتقريرات الله سبحانه !

وحدة هدف :

إن القرآن الكريم يقرر طبيعة موقف أهل الكتاب من المسلمين فى عدة مواضع ...

وهو تارة يتحدث عنهم وحدهم ..

وتارة يتحدث عنهم مع الذين كفروا من المشركين، باعتبار أن هنالك وحدة هدف ـ تجاه الإسلام والمسلمين ـ تجمع الذين كفروا من أهل الكتاب والذين كفروا من المشركين ..

وتارة يتحدث عن مواقف واقعية لهم تكشف عن وحدة الهدف ووحدة التجمع لمواجهة الإسلام والمسلمين . .

والنصوص التى تقرر هذه الحقائق من الوضوح والجزم بحيث لاتحتاج إلى تعليق .. وهذه نماذج منها :

﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[1].

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾[2].

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾[3].

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾[4]

---

(١) البقرة : ١٠٥.
(٢) البقرة : ١٢٠.
(٣) آل عمران : ٦٩.
(٤) آل عمران : ٧٢ ـ ٧٣ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾[1].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ۝٤٤ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ﴾[2].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾[3].

وفى هذه النماذج وحدها مايكفى لتقرير حقيقة موقف أهل الكتاب من المسلمين .. فهم يودون لو يرجع المسلمون كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق !

وهم يحددون موقفهم النهائى من المسلمين بالإصرار على أن يكونوا يهودا أو نصارى، ولا يرضون عنهم ولا يسالمونهم إلا أن يتحقق هذا الهدف !

وهم يشهدون للمشركين الوثنيين بأنهم أهدى سبيلا من المسلمين !

وإذا نحن راجعنا الأهداف النهائية للمشركين تجاه الإسلام والمسلمين، كما يقررها الحق تبارك وتعالى فى قوله:

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ ﴾[4].

﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ﴾[5].

﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ

﴿ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾[7].

﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾

---

(١) آل عمران : ١٠٠ . (٢) النساء : ٤٤ ــ ٤٥ .
(٣) النساء : ٥١ . (٤) البقرة : ٢١٧. (٥) النساء : ١٠٢ .
(٦) الممتحنة : ٢. (٧) التوبة : ٨ . (٨) التوبة : ١٠ .

إذا نحن راجعنا هذه التقريرات الربانية عن المشركين ، وجدنا أن الأهداف النهائية لهم تجاه الإسلام والمسلمين هى بعينها ــ وتكاد تكون بألفاظها ــ هى الأهداف النهائية لأهل الكتاب تجاه الإسلام والمسلمين كذلك .. مما يجعل طبيعة موقفهم من الإسلام والمسلمين هى ذاتها طبيعة موقف المشركين !

وإذا نحن لاحظنا أن التقريرات القرآنية الواردة في هؤلاء وهؤلاء ترد فى صيغ نهائية، تدل بصياغتها على تقرير طبيعة دائمة، لاعلى وصف حالة مؤقته، كقوله تعالى فى المشركين :

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾

وقوله تعالى فى شأن أهل الكتاب :

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾

إذا نحن لاحظنا ذلك تبين لنا بغير حاجة إلى تأويل النصوص، أنها تقرر طبيعة أصيلة دائمة للعلاقات، ولاتصف حالة مؤقتة ولاعارضة !

واقع تاريخى :

وإذا نحن ألقينا نظرة سريعة على الواقع التاريخى لهذه العلاقات متمثلة فى مواقف أهل الكتاب من الإسلام وأهله، على مدار التاريخ ، تبين لنا تماما ماذا تعنيه تلك النصوص والتقريرات الإلهية الصادقة ، وتقرر لدينا أنها كانت تقرر طبيعة مطردة ثابتة، ولم تكن تصف حالة مؤقتة عارضة.

إننا إذا استثنينا حالات فردية ــ أو حالات جماعية قليلة ــ من التى تحدث القرآن الكريم عنها، وحواها الواقع التاريخى، بدت فيها المودة للإسلام والمسلمين، وظهر الاقتناع بصدق خاتم النبيين ﷺ وصدق هذا الدين القيم، ثم الدخول فيه، والانضمام لجماعة المسلمين .. وهى الحالات التى أشرنا إليها فيما تقدم .. فإننا لانجد وراء هذه الحالات الفردية أو الجماعية القليلة المحدودة، إلا تاريخا من العداء العنيد، والكيد الناصب، والحرب الدائبة، التى لم تفتر على مدار التاريخ !

فأما اليهود فقد تحدثت سور كثيرة من القرآن الكريم ــ كما أسلفنا ــ عن مواقفهم وأفاعيلهم وكيدهم ومكرهم وحربهم، وقد وعى التاريخ من ذلك كله ما لم ينقطع لحظة

واحدة منذ اليوم الأول الذى واجههم الإسلام فى المدينة حتى اللحظة الحاضرة !

وحسبنا أن نشير إلى معالم تلك الحرب المسعورة التى شنها اليهود على الإسلام وأهله على مدار التاريخ !

لقد ا ستقبل اليهود رسول الله ﷺ فى المدينة شر ما يستقبل أهل دين سماوى رسولا يعرفون صدقه !

استقبلوه بالدسائس والأكاذيب والشبهات والفتن يلقونها فى الصف المسلم فى المدينة بكافة الطرق الملتوية الماكره التي يتقنها اليهود .. شككوا فى رسالة الرسول ﷺ، وهم يعرفون أنه رسول الله، واحتضنوا المنافقين وأمدوهم بالشبهات التي ينشرونها فى الجو بالتهم والأكاذيب .. وما فعلوه فى حادث تحويل القبلة ـ كما سبق ـ وما فعلوه فى حادث الإفك ، وما فعلوه فى كل مناسبة ، ليس إلا نماذج من هذا الكيد اللئيم .. وفى مثل هذه الأفاعيل كان يتنزل القران الكريم .. مما يطول فيه الحديث ويطول ..

كذلك شهد التاريخ ـ كما عرفنا ـ نقض اليهود لعهودهم مرة بعد مرة، وتحرشهم بالمسلمين، مما أدى إلى وقائع بنى قينقاع وبني النضير ـ كما سبق ـ وبنى قريظة وخيبر كما سيأتى ..

ثم تابع اليهود كيدهم للإسلام وأهله منذ ذلك التاريخ .. كانوا عناصر أساسية فى إثارة الفتنة الكبرى التى انتثر بعدها شمل التجمع الإسلامى إلى حد كبير ..

وكانوا رأس الفتنة فيما وقع بعد ذلك .. وقادوا حملة الوضع فى الحديث والسيرة وروايات التفسير.. وكانوا من الممهدين لحملة التتار على بغداد، وتقويض الخلافة الإسلامية!

فأما فى العصر الحديث فهم وراء كل كارثة حلت بالمسلمين فى كل مكان على وجه الأرض، وهم وراء كل محاولة لسحق طلائع البعث الإسلامى، وهم حماة كل وضع من الأوضاع التى تتولى هذه المحاولة فى كل أرجاء العالم الإسلامى !

ذلك شأن اليهود، فأما شأن الفريق الآخر من أهل الكتاب ، فهو لايقل إصراراً على العداوة والحرب من شأن اليهود!

لقد كانت بين الرومان والفرس عداوات عمرها قرون .. ولكن ما إن ظهر الإسلام فى الجزيرة العربية، وأحس هؤلاء بخطورة هذا الدين الحق على ماصنعوه هم بأيديهم، وهو ركام من الوثنيات القديمة والأضاليل الحديثة، متلبسا ببقايا قليلة من الكتاب المقدس .. حتى رأينا الرومان والفرس ينسون مابينهم من نزاعات تاريخية قديمة، وعداوات وثارات عميقة. ليواجهوا معا هذا الدين !

ولقد أخذ الروم يتجمعون فى الشمال هم وعمالهم من الغساسنة، لينقضوا على الرسالة والرسول .. حتى كانت المواجهة معهم فى معارك ضارية، سنتحدث عنها إن شاء الله فى دراسات موضوعية تحت عنوان « الرسول ﷺ والنصارى وجها لوجه » .

ثم اشتعل مرجل الحقد عندهم منذ موقعة اليرموك الظافرة، التي أعقبها انطلاق الإسلام لتحرير المستعمرات الإمبراطورية الرومانية فى الشام ومصر وشمال إفريقيا وجزر البحر المتوسط .. ثم بناء القاعدة الإسلامية الوطيدة فى الأندلس فى النهاية ..

إن الحروب الصليبية المعروفة بهذا الاسم فى التاريخ ، لم تكن هى وحدها التى شنها هؤلاء على الإسلام .. لقد كانت هذه الحروب مبكرة قبل هذا الموعد بكثير .. لقد بدأت فى الحقيقة منذ ذلك التاريخ البعيد .. منذ أن نسى الرومان عداوتهم مع الفرس، وأخذوا يعينونهم ضد الرسالة والرسول .. ثم تجلت ضراوتها ووحشيتها في الأندلس، عندما زحفوا على القاعدة الإسلامية فى أوربا، وارتكبوا من الوحشية فى تعذيب ملايين المسلمين وقتلهم هناك ما لم يعرف التاريخ له نظير من قبل .. وكذلك تجلت فى الشرق بمثل هذه البشاعة التى لاتتحرج ولاتندم، ولاتراعى فى المسلمين إلاًّ ولاذمة !

من أقوالهم :

يقول « جوستاف لوبون » وهو فرنسى مسيحى :

« كان أول ما بدأ به « ريكاردوس » الإنجليزى، أنه قتل أمام معسكر المسلمين، ثلاثة آلاف أسير سلموا أنفسهم إليه، بعد أن قطع على نفسه العهد بحقن دمائهم. ثم أطلق لنفسه العنان باقتراف القتل والسلب ، مما أثار صلاح الدين الأيوبى النبيل، الذى رحم نصارى القدس ، فلم يمسهم بأذى، والذى أمد « فيليب » « وقلب الأسد » بالمرطبات والأدوية والأزواد، أثناء مرضهما » [1] .

---

(١) فى ظلال القرآن : ٣ : ١٦٢٩ نقلا عن : « الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام » للأستاذ على على منصور.

كذلك كتب مسيحى آخر اسمه « يورجا » يقول : [١] .

« ابتدأ الصليبيون سيرهم على بيت المقدس بأسوأ طالع، فكان فريق من الحجاج يسفكون الدماء فى القصور التى استولوا عليها. وقد أسرفوا فى القسوة، فكانوا يبقرون البطون، ويبحثون عن الدنانير فى الأمعاء! أما صلاح الدين، فلما استرد بيت المقدس بذل الأمان للصليبيين ، ووفى لهم بجميع عهوده، وجاد المسلمون على أعدائهم ووطأوهم مهاد رأفتهم، حتى إن الملك العادل، شقيق السلطان، أطلق ألف رقيق من الأسرى، ومنّ على جميع الأرمن، وأذن للبطريرك بحمل الصليب وزينة الكنيسة، وأبيح للأميرات والملكة بزيارة أزواجهن » .

ولايتسع المجال لاستعراض ذلك الخط الطويل في تلك الحروب على مدار التاريخ .. وحسبنا أن هذه الحرب لم تضع أوزارها حتى اليوم .. ويكفى لتصوير نظرتهم إلى الإسلام أن ننقل فقرة من كتاب لمؤلف أوربى صدر سنة ١٩٤٤م يقول فيه:

« لقد كنا نُخَوَّف بشعوبٍ مختلفة . ولكننا بعد اختبار، لم نجد مبررا لمثل هذا الخوف.. لقد كنا نخوّف من قبل بالخطر اليهودى ، والخطر الأصفر وبالخطر البلشفى .. إلا أن هذا التخويف كله لم يتفق كما تخيلناه . إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد ! ثم رأينا البلاشفة حلفاء لنا. أما الشعوب الصفراء فهنالك دول ديمقراطية كبرى تقاومها. ولكن الخطر الحقيقى كان فى نظام الإسلام، وفى قوته على التوسع والإخضاع، وفى حيويته .. إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى » [٢] .

ولا نستطيع أن نمضى أبعد من ذلك فى استعراض تاريخ تلك الحرب العاتية التى أعلنها هؤلاء على الإسلام وما تزال .. !

وهكذا نرى أن هذه الأحكام الأخيرة التى نحن بصدد الحديث عنها هى المقتضى الطبيعى لهذه الحقائق كلها مجتمعة، وأنها ليست أحكاما محددة بزمان، ولامقيدة بحالة.. مع مراعاة طبيعة المنهج الإسلامى، التى تواجه الواقع البشرى مواجهة واقعية، بوسائل متجددة، فى المراحل المتعددة.

---

(١) المرجع السابق : نفس الموضع .

(٢) المرجع السابق ١٦٣٠ عن كتاب « جورج براون » نقلا عن : التبشير والاستعمار فى البلاد العربية .

الجزية على ضآلتها فرصة اجتماعية للموادعة والتأمل :

إن الإسلام إيمان وأمان، وعدل ورحمة، وإخاء ومحبة، فمن قبله ودان به فهو أخ لكل مسلم ، له من الحقوق ما لكل مسلم[1] ، وعليه من الواجبات ما على كل مسلم ، في دائرة طاقته واستعداده الروحي والمادي، ولاتكلف نفس إلا وسعها .

فإن لم يقبل هؤلاء الدخول في الدين القيم فقد جاءت المرحلة الثانية بعد البيان الواضح والحجة النيِّرة، وهي الإلزام بخرج من المال لا يؤود من يلزم به من القادرين عليه ، وهو لا يضرب إلا على القادر عليه، وهذا الخرج سماه القرآن الكريم « جزية » .

ولفظها يحمل ما في طياتها أنها جزاء في مقابل الدفاع عن دافعيها وحمايتهم ممن يدهمهم بالاعتداء عليهم، وهي في التقدير الاجتماعي فرصة موادعة للنظر في حقيقة ماعرض على المدعوين، وطولبوا بالاستجابة له من أصول الإسلام وأحكام وآدابه، وهم على أكمل درجات الحرية الفكرية والاجتماعية ..

وتاريخ الدعوة إلى الله حافل بالذين نظروا فوفقوا واهتدوا، وسارعوا مستجيبين لدعوة الحق، ودخلوا في ساحة المؤاخاة التكافلية، وفي قلوبهم إيمانهم، ليكونوا مع سائر المسلمين إخوة متكافلين، فكانوا من أقوى المؤمنين إيمانا، وأزكاهم جهادا في سبيل الله، وذابت الجزية في موجبات التكافل الأخوي، وكثر الداخلون إلى ساحة الإسلام، حتى تخوف بعض الولاة في خلافة عمر بن عبد العزيز على بيت المال أن تصغر أركانه، وتخوى جوانبه من المال، فشكوا إلى الخليفة كثرة الداخلين في الإسلام وخواء بيت المال، فقال لهم رضي الله عنه كلمته المعبرة عن هدف الإسلام في شرعية الجهاد : إن الله تعالى بعث محمدا ﷺ هاديا ولم يبعثه جابيا [2] .

عروة في عهد بالحماية:

وهذه الجزية مشروطة بتعهد من قبل قادة الجهاد أن يلتزموا بحماية أهل عهدهم الذين يؤدون الجزية[3]، مادام أولئك القادة قادرين على هذه الحماية، فإن عجزوا عنها وجب عليهم أن يعلنوا ذلك لأهل عهدهم، وأن يردوا عليهم ما أخذوه عنهم من الجزية .

وقد جاء هذا صريحا في عهد صلح أبي عبيدة بن الجراح القائد العام في فتوح الشام

---

(١) محمد رسول الله : ٣: ٢٣١ بتصرف .   (٢) البداية والنهاية : ٩: ١٨٨ .

(٣) محمد رسول الله : ٣ : ٢٣٨ وما بعدها بتصرف .

بعد خالد بن الوليد، فقد قال أبو يوسف :

إنما كان الصلح جرى بين المسلمين وأهل الذمة فى أداء الجزية، وفتحت المدن، على ألا تهدم بيعهم ولا كنائسهم ، داخل المدينة ولا خارجها، وعلى أن يحقنوا لهم دماءهم، وعلى أن يقاتلوا من ناوأهم من عدوهم، ويذبّوا عنهم .

ثم قال: فلما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم، وحسن سيرهم فيهم، صاروا أشد على عدو المسلمين، وعونا للمسلمين على أعدائهم، فبعث أهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالا من قبلهم يتجسسون الأخبار عن الروم وعن ملكهم، ومايريدون أن يصنعوا ، فأتى أهل كل مدينة رسلهم يخبرونهم بأن الروم قد أجمعوا جموعا . لم ير مثلها، فأتى رؤساء أهل كل مدينة إلى الأمير الذى خلفه أبو عبيدة عليهم، فأخبروه بذلك، فكتب والى كل مدينة ممن خلفه أبو عبيدة، إلى أبى عبيدة، يخبره بذلك، وتتابعت الأخبار على أبى عبيدة، فاشتد ذلك عليه وعلى المسلمين ، فكتب أبو عبيدة إلى كل وال ممن خلفه فى المدن التى صالح أهلها يأمرهم أن يردوا عليهم ماجبى منهم من الجزية والخراج، وكتب لهم أن يقولوا لهم : إنا رددنا عليكم أموالكم ، لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وإنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لانقدر على ذلك. وقد رددنا عليكم ما أخذناه منكم، ونحن لكم على الشرط، وماكتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم .

وكتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب يخبره بذلك، فكتب إليه عمر يقره على صنيعه مع المصالحين، ،ويقول له فى كتابه: وامنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم، وأكل أموالهم إلا بحقها، ووف لهم بشرطهم الذي شرط لهم فى جميع ما أعطيتهم .

وفى كتاب خالد بن الوليد فى مصالحته لأهل الحيرة الذى بعث به إلى أبى بكر الصديق يخبره فيه بما تم بينه وبينهم يقول :

إنى نظرت فى عدتهم فوجدتهم سبعة آلاف رجل، ثم ميزتهم فوجدت من كانت به زمانة ألف رجل، فأخرجتهم من العدة، وشرطت عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذى أخذ على أهل التوراة والإنجيل أن لايخالفوا ولايعينوا كافرا على مسلم من العرب ولا من العجم، ولايدلوهم على عورات المسلمين، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه الذى أخذ أشد ما أخذ على نبى من عهد أو ميثاق أو ذمة، فإن خالفوا فلا ذمة لهم ولا أمان، وإن هم

---

(١) محمد رسول الله : ٣: ٢٣٨ ومابعدها بتصرف .

حفظوا ذلك ورعوه، وأدوه إلى المسلمين، فلهم ماللمعاهد، وعلينا المنع لهم ، فإن فتح الله علينا فهم على ذمتهم، لهم بذلك عهد الله الذى أخذ أشد ما أخذ على نبى من عهد أو ميثاق، وعليهم مثل ذلك .

وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيا فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله .

هـذه هـى قصـة الجزية فى الفتوحات الإسلامية، والإسلام فى أوج عظمتـه، وقوة اندفاعه فى الدعوة إلى الله، وهذه موادعتها وفرصتها للنظر المتأمل، وهذه صور ونماذج من معاملة المسلمين وقادتهم لمن عوهدوا منهم عليها.

أين الإكراه والقهر فى نظام الجزية ؟:

ونتساءل : أين السيف ؟ وأين القهر ؟ وأين الإكراه على الدخول فى الإسلام؟ لاشىء من ذلك قد كان قط، ولكن الذى كان إنما هو دعوة إلى الحق، وصفاء التوحيد، وإخلاص العبودية لله تعالى فى ظل من الحرية الطليقة من كل قيد، وفى ظل من حفاوة العدل والرحمة، وتحمل أعباء الحماية، والدفاع عن المعاهدين المصالحين، ممن يناوئهم ويعتدى عليهم .

فإن ركب المدعوون إلى الحق والهدى متن الشيطان بعد هذه الحفاوة الرحيمة، ولجوّا فى العناد والاستكبار، وفجور الكفر والإلحاد، لم يبق أمام المجاهدين فى سبيل الله ونشر النور والخير إلا القتال الذى يفلُّ شوكة العتوّ العنيد، ويطهر الحياة من أوضار الشرك والوثنية الملحدة، وهما مصدر كل شر، ومنبع كل فساد فى الأرض، حتى يحكم الله بين كتائب المجاهدين وبين أعدائهم بإعلان كلمة الحق ونشر العدل، وإنقاذ المستضعفين فى الأرض من ظلم الطغاة والمتجبرين، والموت فى سبيل إحقاق الحق، وإقامة معالم التوحيد، وهدم الوثنيات المادية الطاغية، أحب إلى كتائب المجاهدين من حب أعدائهم أحلاس الشرك للحياة .

روى الطبرى أن خالد بن الوليد لما نزل الحيرة خرج إليه أشرافها مع أميرهم قبيصة بن إياس الطائى، فقال لهم خالد :

أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، فإن أجبتم فأنتم من المسلمين، لكم ما لهم وعليكم ماعليهم، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فقد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على

الحياة، وجاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم .

ما أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ :

هذا، وقد فاخرت الولايات المتحدة الأمريكية غيرها من الأمم فى القرن التاسع عشر بالكاتب « إيرفنج » الذى كتب سيرة النبى ﷺ بمفهومه هو، ووضع للكتاب خاتمة عرض فيها لقواعد الإسلام، وماحسبه المصادر التاريخية التى استندت إليها هذه القواعد.. وفيه هذه العبارة التى هى فى الحقيقة عار الغرب ووصمته، وجرثومة القضاء على كبريائه وعلى حضارته، يقول « إيرفنج » [1] .

إن بقاء الهلال حتى اليوم فى أوربا، حيث كان يوما ما بالغا غاية القوة، إنما يرجع إلى اختيار الدول المسيحية الكبرى، أو يرجع بالأحرى إلى تنافسها، ولعل الهلال باق ليكون دليلا جديدا على أن : « من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ » !

هذه آية الإنجيل يوجهها « إيرفنج » باسم المسيحية إلى الإسلام . ياعجبا ! لعل له من العذر أنه قالها منذ قرن مضى، حيث لم يكن الاستعمار الغربى فى تعبيرنا المسيحى فى تعبيره، قد بلغ من الشره والجشع ومن الأخذ بالسيف مابلغ اليوم !

لكن الماريشال « اللنبى » الذى استولى على بيت المقدس فى سنة ١٩١٨م باسم الحلفاء ، قد قال مثل هذه العبارة : إذ نادى فى ساحة المسجد الأقصى :

« اليوم انتهت الحروب الصليبية » !

وقد قال الدكتور « بيتر سن سميث » في كتابه عن سيرة « المسيح » :

« إن هذا الاستيلاء على بيت المقدس كان حربا صليبية ثامنة، أدركت المسيحية فيها غايتها » .

ولقد يكون من الحق أن هذا الاستيلاء لم ينجح بمجهود المسيحيين، وإنما نجح بمجهود اليهود الذين سخروهم ليحققوا حلم بنى إسرائيل القديم، فيجعلوا أرض الميعاد وطنا قوميا لليهود !

ولئن صدقت كلمة الإنجيل هذه على قوم لهى أشد ماتكون صدقا اليوم على أوربا المسيحية ! أما الإسلام فلم يأخذ بالسيف ، ولن يؤخذ لذلك بالسيف، وأوربا قد أخذت

---

(١) حياة محمد : ٥٤٨ ، ٥٧٧ بتصرف

بالسيف ، حتى فى عصرنا هذا، إمعانا فى الإباحية والترف ، ممايسبه « إيرفنج » باطلا للإسلام والمسلمين .

وسيلة عملية :

إن أهل الكتاب بصفاتهم تلك حرب على الدين القيم اعتقادا وسلوكا [1] كما أنهم حرب على المجتمع المسلم، بحكم طبيعة التعارض والتصادم الذاتيين بين منهج هذا الدين القيم ومنهج الجاهلية الممثلة فى عقيدة أهل الكتاب وواقعهم - وفق ما تصوره هذه الآيات التى معنا - كما أن الواقع التاريخي قد أثبت حقيقة التعارض وطبيعة التصادم ، وعدم إمكان التعايش بين المنهجين، وذلك بوقوف أهل الكتاب فى وجه دين الله فعلا، وإعلان الحرب عليه وعلى أهله بلا هوادة، خلال الفترة السابقة لنزول هذه الآية:

﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾

وخلال الفترة اللاحقة لها إلى اليوم أيضا !

والإسلام - بوصفه دين الحق الوحيد القائم فى الأرض - لابد أن ينطلق لإزالة العوائق المادية من وجهه، ولتحرير الإنسان من الدينونة بغير دين الحق، على أن يدع لكل فرد حرية الاختيار - كما أسلفنا - بلا إكراه منه ولا من تلك العوائق المادية كذلك .

وإذن فإن الوسيلة العملية لضمان إزالة العوائق المادية، وعدم الإكراه على اعتناق الإسلام فى الوقت نفسه، هى كسر شوكة السلطات القائمة على غير دين الحق، حتى تستسلم، وتعلن استسلامها بقبول إعطاء الجزية فعلا .

وعندئذ تتم عملية التحرير فعلا، بضمان الحرية لكل فرد من هؤلاء أن يختار دين الحق عن اقتناع .. فإن لم يقتنع بقى على عقيدته، وأعطى الجزية، لتحقيق عدة أهداف :

أولها : أن يعلن بإعطائها استسلامه، وعدم مقاومته بالقوة المادية للدعوة إلى دين الحق .

---

(١) فى ظلال القرآن : ٣ : ٦٣٣ ومابعدا بتصرف .

وثانيها : أن يساهم ـ كما أسلفنا ـ فى نفقات الدفاع عن نفسه وماله وعرضه، وحرماته التى يكفلها الإسلام لأهل الذمة ـ الذين يؤدون الجزية فيصبحون فى ذمة المسلمين وضمانتهم ـ ويدفع عنها من يريد الاعتداء عليها من الداخل أو من الخارج بالمجاهدين من المسلمين.

وثالثها : المساهمة في بيت مال المسلمين الذى يضمن الكفالة والإعاشة لكل عاجز عن العمل ، بما فى ذلك أهل الذمة، بلا تفرقة بينهم وبين المسلمين دافعى الزكاة .

ضلال عقيدة أهل الكتاب :

ولما أمر الله المسلمين بقتال أهل الكتاب « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » كانت هنالك ملابسات في واقع المجتمع المسلم فى المدينة .. تدعو إلى توكيد هذا الأمر وتقويته، وجلاء الأسباب والعوامل التى تحتمه، وإزالة الشبهات والمعوقات التى تحيك فى بعض النفوس تجاهه . وبخاصة أن طاعة هذا الأمر كانت تقتضى مواجهة الروم فى أطراف الشام، والروم كانوا مرهوبين من العرب قبل الإسلام، وكانوا مسيطرين على شمال الجزيرة لفترة طويلة، ولهم أعوان من القبائل العربية، وسلطنة خاصة لنفوذهم هى سلطنة الغساسنة..

وهنا كان بيان ضلال عقيدة أهل الكتاب هؤلاء وأنها تضاهىء عقيدة المشركين من العرب، والوثنيين من قدامى الرومان وغيرهم.. وأنهم لم يستقيموا على العقيدة الصحيحة التى جاءتهم بها كتبهم فى مبدأ نزولها، فلا عبرة إذن بأنهم أهل كتاب ، وهم يخالفون فى الاعتقاد الأصل الذى تقوم عليه العقيدة الصحيحة :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

والذى يلفت النظر هو ذكر اليهود هنا وقولهم : « عزير ابن الله » فى حين أن الآيات كانت بصدد التوجيه والتحضير لمواجهة الروم وحلفائهم من نصارى العرب .. وذلك يرجع إلى أمرين :

الأول : أنه لما كان نص الآيات عاما ، والأمر بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية

عن يد وهم صاغرون عاما، فقد اقتضى السياق بيان الأصل الاعتقادى الذى يستند إليه هذا الأمر العام فى شأن أهل الكتاب عامة من اليهود والنصارى سواء.

الثانى : أن اليهود كانوا قد رحلوا من المدينة إلى أطراف الشام ، بعد ما اشتبكوا مع الإسلام والمسلمين فى حرب مريرة منذ مقدم الرسول الحبيب المحبوب ﷺ إلى المدينة .. انتهت بإجلاء بنى قينقاع وبنى النضير ـ كما أسلفنا ـ إلى أطراف الشام . هم وأفراد من بنى قريظة .. فكان اليهود يومئذ فى طريق الانطلاق الإسلامى إلى أطراف الشام .. مما اقتضى أن يشملهم ذلك الأمر، وأن يشملهم هذا البيان ..

والتعقيب القرآنى علي قول اليهود « عزير ابن الله » وقول النصارى «المسيح ابن الله» يثبت أنهم فى هذا يماثلون قول الذين كفروا من قبل ومعتقداتهم وتصوراتهم :

﴿ ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾.

فهو أولا يثبت أن هذا القول صادر منهم، وليس مقولا عنهم. ومن ثم يذكر «أفواههم» لاستحضار الصورة الحسية الواقعية ـ على طريقة القرآن فى التصوير ـ إذ إنه مفهوم أن قولهم يكون بأفواههم فهذه الزيادة ليست لغوا ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـ وليست إطنابا زائدا، إنما هى طريقة التعبير القرآنية التصويرية، فهى التى تستحضر « صورة » القول،وتحيلها واقعية، كأنها مسموعة مرئية ! وذلك فضلا على ماتؤديه من معنى بيانى آخر ـ إلى جانب استحياء الصورة وإثباتها ـ وهو أن هذا القول لاحقيقية له فى عالم الواقع، إنما هو مجرد قول بالأفواه، ليس وراءه موضوع ولا حقيقة !

جاء فى المنار [١] : « ذلك قولهم بأفواههم » أى ذلك القول الذى قالوه فى عزير والمسيح، هو قولهم الذى تلوكه ألسنتهم فى أفواههم، ما أنزل الله به من سلطان ، ولا يتجاوز حركة اللسان، إذ ليس له مدلول فى الوجود، ولا حقيقة فى مدارك العقول، فهو كقوله تعالى :

﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً

---

(١) تفسير المنار: ١٠ : ٣٣٩ .

﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[1].

وفي معناه قوله في التبني :

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[2].

وقوله فى أهل الإفك :

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾[3].

فذكر الأفواه، وكذا الألسنة مع العلم بها بالحس، لبيان ما ذكر، أى أنه قول لا يعدوها ولا يتجاوزها إلى شىء فى الوجود، فهو كما يقول العوام «كلام فارغ»!

وقوله تعالى «يضاهئون قول الذين كفروا من قبل» أى يشابهون ويحاكون فيه قول الذين كفروا من قبلهم ـ كما أسلفنا ـ وقد علمنا من تاريخ قدماء الوثنيين فى الشرق والغرب أن عقيدة الابن لله والحلول والتثليث كانت معروفة عند البراهمة فى الهند، والبوذيين فيها، وفى الصين واليابان، وقدماء الفرس، والمصريين، واليونان، والرومان .. وهذا البيان لهذه الحقيقة من معجزات القرآن الكريم، فإنه لم يكن يعرفها أحد من العرب، ولا ممن حولهم، بل لم تظهر إلا فى هذا الزمان .. ولم يتضح هذا المدى البعيد إلا حديثا بعد دراسة عقائد الوثنيين فى تلك البلاد التى أشرنا إليها . مما اتضح معه أصل العقائد المحرفة عند أهل الكتاب ..

« **قاتلهم الله ! أنى يؤفكون ؟** » نعم .. قاتلهم الله ! وهذه الجملة تستعمل فى اللسان العربى للتعجب، فهو المراد بها لإظهار معناها.

قال ابن عباس :[4] لعنهم الله . « **أنى يؤفكون ؟**» أى كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل ؟

وهذا ـ كما يقول ابن كثير ـ إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقالتهم هذه الشنيعة، والفرية على الله تعالى!

وينتقل السياق القرآنى إلى صفحة أخرى من صحائف الانحراف الذى عليه أهل الكتاب، تتمثل فى هذه المرة، لا فى القول والاعتقاد وحدهما، ولكن كذلك فى الواقع

---

(١) الكهف : ٤ ـ ٥ .　　(٢) الأحزاب : ٤ .

(٣) النور: ١٥ .　　(٤) تفسير ابن كثير : ٢: ٣٤٨ .

القائم على الاعتقاد الفاسد :

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

وفى هذه الآية ـ كما يقول القاسمى [١] ـ زيادة تقرير لما سلف من كفرهم بالله تعالى، وفيه وصفهم بنوع آخر من الشرك .

والآية واضحة الدلالة لا تحتاج إلى تعليق أكثر .. وقد مضى من القول مايجعلنا فى غير حاجة إلى مزيد بيان ..

ثم ينتقل السياق القرآنى بعد ذلك خطوة أخرى فى تحريض المؤمنين على القتال :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾

إن أهل الكتاب هؤلاء لا يقفون عند حد الانحراف عن دين الحق [٢] ، وعبادة أرباب من دون الله، وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر ـ وفق المفهوم الصحيح للإيمان بالله واليوم الآخر ـ إنما هم كذلك يعلنون الحرب على دين الحق، ويريدون إطفاء نور الله فى الأرض، المتمثل فى هذا الدين، وفى الدعوة التى تنطلق به فى الأرض، وفى المنهج الذى يصوغ على وفقه حياة البشر :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾

فهم محاربون لنور الله... سواء بما يطلقونه من أكاذيب ودسائس وفتن، أو بما يحرضون به أتباعهم وأشياعهم على حرب هذا الدين وأهله، والوقوف سدا فى وجهه كما كان هو الواقع الذى تواجهه هذه النصوص، وكما هو الواقع على مدار التاريخ ..

وهذا التقرير ـ وإن كان يراد به استجاشة قلوب المسلمين إذ ذاك ـ هو كذلك يصور طبيعة الموقف الدائم لأهل الكتاب من نور الله، والمتمثل فى دينه الحق، الذى يهدى الناس بنور الله :

﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

وهو الوعد الحق من الله، الدال على سنته التى لا تتبدل ، فى إتمام نوره بإظهار دينه،

---

(١) تفسير القاسمى : ٨ : ٣١٢٤ .

(٢) فى ظلال القرآن : ٣: ١٦٤٣ بتصرف .

ولو كره الكافرون..

وهو وعد تطمئن له قلوب الذين آمنوا ، فيدفعهم هذا إلى المضى فى الطريق على المشقة واللأواء فى هذا الطريق، وعلى الكيد والحرب من الكافرين ـ والمراد بهم هنا هم أهل الكتاب السابق ذكرهم ـ كما أنه يتضمن فى ثناياه الوعيد لهؤلاء الكافرين من أهل الكتاب وأمثالهم على مدار الزمان!

المستقبل للإسلام :

ويزيد السياق القرآنى هذا الوعيد وذلك الوعد توكيدا :

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾

وفى هذا النص يتبين أن المراد بدين الحق الذى سبق فى قوله تعالى :

﴿ قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾

هو هذا الدين الحق . هو هذا الدين القيم . هو هذا الإسلام . وأن الذين لا يدينون بهذا الدين هم الذين يشملهم الأمر بالقتال ..

وهذا توكيد لوعد الله الأول : **﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولوكره الكافرون﴾** ولكن فى صورة أكثر تحديدا. فنور الله الذى قرر سبحانه أن يتمه، هو دين الحق الذى أرسل به رسوله ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون .

روى مسلم وغيره عن ثوبان، قال : قال رسول الله ﷺ :

« **إن الله زوى لى الأرض . فرأيت مشارقها ومغاربها . وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها ..** » الحديث (١) .

وروى أحمد وغيره بسند صحيح عن أبى قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص، وسئل : أى المدينتين تفتح أولا : القسطنطينية أو رومية ؟

---

(١) مسلم : ٥٢ . الفتن ١٩ (٢٨٨٩) وأحمد : ٥ : ٢٧٨ ، ٢٨٤ . وأبو داود و (٤٢٥٢) والترمذى (٢١٧٦) ، وابن ماجه (٣٩٥٢) .

فدعا عبد الله بصندوق له حلق، قال: فأخرج منه كتابا قال: فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذا سئل رسول الله ﷺ : أى المدينتين تفتح أولا : أقسطنطينية أو رومية ! فقال رسول الله ﷺ :

« مدينة هرقل تفتح أولا » .

يعنى قسطنطينية[١] .

ورومية : هى روما كما فى معجم البلدان ، وهى عاصمة إيطاليا اليوم .

وقد تحقق الفتح الأول على يد محمد الفاتح العثمانى، كما هو معروف، وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار النبى ﷺ بالفتح، وسيتحقق الفتح الثانى بإذن الله تعالى ولابد، كما أخبر الرسول ﷺ ، ولتعلمن نبأه بعد حين .

وهذا الفتح الثاني يستدعى أن تعود الخلافة الراشدة إلى هذه الأمة التي تدين بهذا الدين القيم .. كما يبشرنا به الرسول ﷺ فيما رواه أحمد وغيره بسند حسن عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ :

« تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ماشاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا فيكون ماشاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبرية، فتكون ما شاء اللّه أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة » .

ثم سكت[٢].

ولقد تحقق هذا بظهور هذا الدين الذى أرسل به خاتم رسله على الدين كله بهذا

---

(١) أحمد : ٢: ١٧٦ والدارمى : ١: ١٢٦ والحاكم : ٤: ٥٠٨ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وهو كما قالا .

(٢) أحمد : ٤: ٢٧٣ ثنا سليمان بن داود الطيالسى، ثنا دا ود بن إبراهيم الواسطى، حدثنى حبيب بن سالم، عن النعمان بن بشير قال: كنا قعود فى المسجد مع رسول الله ﷺ وكان بشير رجلا يكف حديثه، فجاء أبو ثعلبة الخشنى فقال : يابشير بن سعد : أتحفظ حديث رسول الله ﷺ فى الأمر ؟ فقال حذيفة : أنا أحفظ خطبته، فجلس أبو ثعلبة، فقال حذيفة : فذكره مرفوعا .. قال حبيب : فلما قام عمر بن عبد العزيز ، وكان يزيد بن النعمان بن بشير فى صحابته، فكتب إليه بهذا الحديث، أذكره إياه، فقلت له : إنى أرجو أن يكون أمير المؤمنين ، يعنى عمر ابن عبد العزيز بعد ذلك الملك العاض والجبرية، فأدخل كتابى على عمر بن العزيز فسربه وأعجبه، والطيالسى (٢٥٩٣) والهيثمى فى المجمع : ٥: ١٨٩ والبيهقى فى دلائل النبوة: مشكاة المصابيح (٥٣٧٨) .

المدلول الشامل العام !

تحقق فى حياة رسول الله ﷺ ، وخلفائه ومن جاء بعدهم فترة طويلة من الزمان .. وكان دين الحق أظهر وأغلب، وكان ماعداه يخاف ويرتجف ! ثم تخلى أصحاب دين الحق عنه، خطوة فخطوة بفعل عوامل داخلة فى تركيب المجتمعات الإسلامية من ناحية، وبفعل الحرب الطويلة المدى، المنوعة الأساليب، التى أعلنها عليه أعداؤه من الوثنيين وأهل الكتاب سواء ، من ناحية أخرى !

ولكن هذه ليست نهاية المطاف ــ كما سبق ــ فإن وعد الله قائم ، ينتظر العصبة المسلمة، التى تحمل الراية وتمضى، مبتدئة من نقطة البدء، التى بدأت منها خطوات رسول الله ﷺ ، وهو يحمل دين الحق، ويتحرك بنور الله ..

هؤلاء هم أهل الكتاب :

ثم يخطو السياق القرآنى الخطوة الأخيرة .. مصورا كيف أن أهل الكتاب لا يحرمون ماحرم الله ورسوله، بعدما أشار إلى هذه الحقيقة في قوله:

والمعنى كما يقول ابن كثير : أنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا، وقال السدى : استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم [1] ، ولهذا قال تعالى :

أى الذى إذا حرم الشيء فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال ، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ ..

يخطو السياق القرآنى مخاطبا بهذه الحقيقة الذين آمنوا، كاشفا لهم فى هذا الخطاب عن حقيقة أهل الكتاب :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ

(١) تفسير ابن كثير : ٢: ٣٤٩ .

﴿ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

إن هؤلاء الذين اتخذهم أهل الكتاب أربابا من دون الله، فاتبعوهم فيما يشرعون لهم من المعاملات ومن العبادات سواء .. يجعلون من أنفسهم ويجعلهم قومهم أربابا تتبع وتطاع ، وهم فيما يشرعون يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله ..

وأكل أموال الناس بالباطل يتمثل فى صور شتى وما يزال :

منها ما يأخذونه على فتاوى تحليل الحرام وتحريم الحلال ، لصالح من يملكون المال أو السلطان !

ومنها ما يأخذه هؤلاء مقابل الاعتراف بالخطايا والغفران ! ومنها الربا ـ وهو من أوسع أبوابها وأبشعها ـ وغيرها كثير !

كذلك ما يجمعونه من أموال الناس لمحاربة دين الحق، وقد كان هؤلاء يجمعون مئات الملايين فى الحروب الصليبية، ومايزالون يجمعونها للتبشير والاستشراق، للصد عن سبيل الله !

ثم ها هى ذى نار جهنم حميت واحمرت تنتظر هؤلاء . وها هى ذى معدة مهيأة .. فليبدأ العذاب الأليم .. ها هى ذى الجباه تكوى .. لقد انتهت عملية الكى فى الجباه، فليداروا على الجنوب .. ها هى ذى الجنوب تكوى .. لقد انتهت هذه فليداروا على الظهور.. ها هى ذى الظهور تكوى .. لقد انتهى هذا اللون من العذاب، فليتبعه الترذيل والتأنيب :

﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

هذا هو بذاته الذى كنزتموه للذة، فانقلب أداة لهذا اللون الأليم من العذاب !

ذوقوه بذاته، فهو هو الذى تذوقون منه مسه للجنوب والظهور والجباه !

ألا إنه لمشهد مفزع مروع، يعرض فى تفصيل وتطويل وأناة !

وهو يعرض أولا لتصوير مصائر الكثير من الأحبار والرهبان .. ثم لتصوير مصائر الكانزين للذهب والفضة لا ينفقونها فى سبيل الله ..

إن تعرية أهل الكتاب من شبهة أنهم على شيء من دين الله، ألزم وأشد ضرورة من بيان حال غيرهم الصريحين في شركهم الشاهدين على أنفسهم بالكفر بظاهر عقائدهم وشعائرهم ذلك أن نفوس المسلمين لاتنطلق الانطلاق الكامل لمواجهة الجاهلية إلا حين يتجلى لها تماما وجه الجاهلية ! ووجه الجاهلية مكشوف صريح فيما يختص بالمشركين، وليس الحال كذلك فيما يختص بأهل الكتاب! ومن ثم كانت تعرية أهل الكتاب بهذه الصورة ، وذلك هو فصل الخطاب في هذا الموضوع !

رجاء أن يكون في ذلك ذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين.

قال ابن كثير :[1] والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلال، كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى .

يروى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال :

« لتتبعن سنن من كان قبلكم . شبرا بشبر، وذراعا بذراع. حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبّ تبعتموهم ».

قلنا : يارسول الله ! آليهود والنصارى ؟ قال :

« فمن ؟ »[2] .

* * *

(١) تفسير ابن كثير : ٢: ٣٥٠

(٢) البخارى : ٩٦ ـ الاعتصام (٧٣٢٠) ومسلم : ٤٧ ـ العلم ٦ (٢٦٦٩) .



الفصل الثالث

في سبيل الله

الوصية النبوية ـ هداية إنسان واحد خير من أعز معاز الدنيا ـ هداية الإنسانية ـ ضرورة المواجهة ـ شباب مخدوع ـ ضائع مضيّع ـ أخطر المخاطر ـ التسامح الذليل ـ والخوف من تيقظ المجتمع المسلم ـ رأى يدفع تهمة زائفة ـ علوم الإسلام ولغته ـ « الدين النصيحة » ـ علاج ضرورى ـ وسيلة لا غاية ـ تحرير الإنسانية ـ إعلاء كلمة الله ـ وجوب إعداد القوة ـ دستور الإعداد للقتال ـ سمات أصيلة ـ الحرب المقدسة ـ قذائف الحق .



الوصية النبوية :

يروى مسلم وغيره عن سليمان بن بريدة، عن أبيه. قال : كان رسول الله ﷺ، إذا أمَّر أميرا على جيش أو سرية، أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا . ثم قال :

« اغزوا باسم الله . في سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تَغُلُّوا. ولا تغدِروا ولا تُمثِّلوا ولا تقتلوا وليدا . وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال) فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى الإسلام . فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى التحوّل من دارهم إلى دار المهاجرين . وأخبرهم أنهم ، إن فعلوا ذلك ، فلهم ماللمهاجرين وعليهم ماعلى المهاجرين. فإن أَبَوْا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين. يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين. ولا يكون لهم فى الغنيمة والفيء شيء. إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوْا فسلهم الجزية. فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ، وإذا حاصرت أهل حِصْن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه. فلا تجعل لهم ذمة الله ولاذمة نبيه. ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك. فإنكم أن تُخْفِرُوا ذِمَمَكم وذِمم أصحابكم ، أهون من أن تخفروا ذمه اللّه وذمه رسوله. وإذا حاصرت أهل حصْن ، فأرادوك أن تُنْزِلهم على حكم الله ، فلا تُنزِلهم على حكم الله. ولَكِنْ أَنْزِلهم على حكمك . فإنك لاتدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا » [1] .

هداية إنسان واحد خير من أعز معاز الدنيا :

هذه الوصية النبوية الثابتة عن رسول الله ﷺ تدل بأسلوب ديباجتها على أنها كانت هى منهج الدعوة إلى الله، [2] التى التزمها قادة الجهاد فى المجتمع المسلم؛ لأنها رسمت الإطار الذى تتجمع فيه صور الجهاد في سبيل الله، فكانت بذلك بيانا لمنهج الدعوة فى نظامها الذى يحقق المقصود من شرعية الجهاد، الذى جعلته هذه الوصية النبوية مراتب، لا يجوز لقادة الجهاد أن يتجاوزوا مرتبة منها فى وضعها من الوصية النبوية إلى غيرها من

---

(١) مسلم : ٣٢ ـ الجهاد ٣ (ت ١٧٣١) واللفظ له ، وأبوداود (٢٦١٢) والترمذى (١٦١٧) .

(٢) محمد رسول اللّه : ٣: ٢٣٠ وما بعدها بتصرف.

المراتب ، إلا إذا لم تقبل المرتبة التى قبلها، وعجز الإقناع أمام العناد المستكبر عن الوقوف عندها.

ونذكر مارواه الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر :

« لأعطِيَنَّ هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ».

قال: فبات الناس يدُوكون ليلتهم : أيهم يعطاها ؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال :

« أين علىّ بن أبى طالب ؟ »

فقيل : هو يارسول الله ! يشتكى عينيه. قال: فأرسلوا إليه، فأتى به فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه، ودعا له فبرأ، حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية. فقال على: يارسول الله ! أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، فقال :

« انفُذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم مِنْ حق الله فيه، فوالله ! لأنْ يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حُمر النَّعم » (١) .

وهذا الحديث الثابت الصحيح ظاهر الدلالة فى تصوير منهج الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لشرعية الجهاد فى الدعوة إلى الله عز وجل، وما ينبغى أن تستهدفه هذه الدعوة، فعلىّ رضى الله عنه يسأل الرسول الحبيب المحبوب ﷺ عن قتال هؤلاء اليهود الأعداء الخونة ــ كما سيأتى ــ ليبين للناس مانزّل إليهم من شرعية الجهاد؛ لحماية الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، والدفاع عنها فى مسيرتها، حتى يعلموا أن الجهاد فى هذا المنهج إنما هو وسيلة للهداية، وهى أعز ما يكسبه المجاهدون فى جهادهم، وأنها خير ما يؤتاه مدعو إليها فيستجيب لها، وأن تألف القلوب وجذبها إلى ساحتها هو ما يجب على المجاهدين أن يجعلوه نصب أعينهم، ومقصدهم من جهادهم .

---

(١) البخارى : ٦٤ ــ المغازى (٤٢١٠) ، ومسلم : ٤٤ ــ فضائل الصحابة ٣٤ (٢٤٠٦)، وأحمد : ٥: ٣٣٣ وقوله: « يدوكون » بمهملة مضمومة ــ أى باتوا فى اختلاط واختلاف ، والدوكة ــ بالكاف ــ الاختلاط . فتح البارى : ٧: ٤٧٧.

قال ابن حجر : [1] يؤخذ منه أن تألف الكافر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله.

هداية الإنسانية :

فى إطار هذا المنهج ننظر فى أهم غزوات الرسول الحبيب المحبوب ﷺ [2] التى قادها بنفسه الكريمة، مع اليهود ومن على شاكلتهم، لنصور من واقعها فى الحياة أسبابها وأحداثها ووقائعها التى أملى سطورها المنهج النبوى، الذى قام على أساسه ترابط المجتمع المسلم، معتمدا على دعائم المؤاخاة التكافلية بين جماعات هذا المجتمع فى دستور معلوم بأمر خاتم النبيين ﷺ ، بعد أن أحكمت وشائج مؤاخاه الحب فى الله ولله بين أفراد طلائع هذا المجتمع المثالى من المهاجرين والأنصار الذين آخى بينهم النبى ﷺ فى مشرق حياتهم الجديدة بالمدينة بعد الهجرة ..

والمؤاخاه فى الله تعنى فى حياة هذا المجتمع المثالى: المتآخى على الحب فى الله، والحب يذيب الفواصل والفوارق الشخصية، ويمحو « الأنانية » فهى مواخاة تركز فى وجودها على التمازج بين المتآخيين تمازجا لا يرى فيه أحد الأخوين أن له شيئا ليس هذا الشيء عينه لأخيه، بل يرى أن هذا الشيء الذى فى يده هو لأخيه فى يده قبل أن يكون لنفسه.

فالمؤاخاة بنوعيها الفردى والجماعى آية من آيات المنهج النبوى التى أريد بها فيه أن تكون صورة حية للتربية السلوكية المنطلقة فى مسيرة الدعوة إلى الله بروحانيتها ووحدتها الإيمانية ، ليستعيد بها المجتمع ـ إذا عاد إليها ـ مكانته فى هداية الإنسانية لإصلاح ما أفسده العلم المادى من حياتها الفكرية وحياتها الروحية.

وقدكان يكفى البحث فى البرهنة القاطعة على أن غزوات الرسول الحبيب المحبوب ﷺ مع اليهود ومن على شاكلتهم، لم تكن لتستهدف ـ قط ـ إكراه أحد على اعتناق ما لم يؤمن به إيمانا عقليا وروحيا.

ما سبق أن ذكرناه من أن الهدف إنما هو دعوة خلق الله إلى دين الله، وفتح الطريق أمام مسيرة تبليغ الرسالة لإخراج الإنسانية من الظلمات إلى النور، وإنقاذها من التعبد للوثنيات التى وقع فيها أهل الكتاب ـ كما عرفنا ـ ووقع فيها غيرهم، لتعيش فى ظل من وحدة الإيمان ، ولتبنى حضارتها على المؤاخاه والحب ، لا على المادية المدمرة لمظاهر الحياة، المفسدة للتفكير، المنحرفة بالسلوك الإنسانى عن جادة الاستقامة .

---

(١) فتح البارى : ٧: ٤٧٨ .

(٢) محمد رسول الله : ٣: ٢٤٥ ومابعدها بتصرف .

ضـرورة المواجهة :

بيد أننا رأينا اليهود ومن على شاكلتهم قديما وحديثا من المتظاهرين بالبحث العلمي وحرية الفكر ـ كما يزعمون ـ يتشكلون فى صور وألوان مختلفة:

فهى تارة استشراقية: تدعى البحث العلمى ، وتتباكى على حرية التفكير.

وتارة تبشيرية: تزعم أنها تهدى إلى حق وإصلاح .

وأخرى سياسية: تحاول أن تجعل من الحياه حقلا لتجارب الظالمين الماديين فى المجتمع البشرى.

ومرة أخرى اجتماعية: تخدع الناس عن حرياتهم وتخادعهم عن خصائص إنسانيتهم، لتتخد من هذا الخداع وتلك المخادعة منحدر إلى هاوية إذابة الفرد فى تنور المجتمع البشرى المشتعل بنيران الحقد المضطفن ، والتنافس المادى المثير للفتن والشرور . يتناولون فى مؤلفاتهم وصحفهم ومجلاتهم ووسائل إعلامهم ، وأحاديث أنديتهم اليهودية ومن على شاكلتها المجتمع المسلم، ومنهجه فى الحياة الطعن الجارح والألفاظ النابية، زاعمين أن هذا المجتمع مجتمع حرب وقتال ، تسفك فيه الدماء، وتجمع الغنائم والأموال، لإكراه الناس على الاندماج فى تركيبه الاجتماعى الإيمانى بقوة السيف والقهر، وهم مفترون كاذبون، يعلمون أنهم كاذبون، ولكن الطبيعة اليهودية، والعصبية الخانقة، والحقد المغيظ الذى يملأ قلوبهم على هذا المجتمع المسلم، وماورثوه عن أسلافهم فى الكفر والإلحاد من أن هذا المجتمع المثالىّ القائد الرائد الذى أزهق باطلهم ودوَّخ ممالكهم وقوّض إمبراطورياتهم، وأقام على أنقاضها مجتمعا مثاليا قائدا رائدا، عاش على منهج الدين القيم فيها قرونا، ثم أخرج منها، ولكن آثاره لاتزال ، رغم مرور الأعوام والقرون، قائمة تنادى المجتمع المسلم : أن تيقظ، فإن لك أوطانا سليبة تنتظرك إذا عدت لمنهجك الأصيل فى الحياة .. هى التى أعمت بصائرهم عـن الحق ، فلم يبصروه إلامن منظار الحقد الدفين، والحقد ظلمة فى جنان الإنسان تحيط بأقطاره، فتحجب عنه كل أنوار الحياة .

شباب مخدوع :

ونرى إلى جانب هؤلاء اليهود الحاقدين ومن على شاكلتهم صورا من المستضعفين فى أوطان الإسلام من ذوى الشخصيات « الببغاوية » ..ولا سيما الشباب الغرّير المغرّر به، الذى خدعته وتخدعه دعاوى العصرية والتجدد والتجديد، والحرية التقدمية، والتفكير الصاعد، والمبادئ الاجتماعية المزركشة، والطرائق السياسية المنافقة، والنظم الاقتصادية

المخرّبة، والأوضاع السلوكية المفسدة، من كل ما يُرى فى أنماط الحياة المترفة، الخليعة الماجنة، المائعة التي يعيش فيها الشباب العارى من الحصانة الروحية، والخالى من المناعة الخلقية، الخاوى من المعرفة الإسلامية معرفة يستطيع بها مقاومة الإغراء المستهتر الخليع من خصائص الرجولية الحقة.

هذا الشباب الذى تقذف به إلى أحضان هؤلاء الأعداء من اليهود الحاقدين ومن على شاكلتهم، فى صورة بعوث تطلب العلم في محاضنه الاستشراقية والتبشيرية الإلحادية.. الكثره من أوطان المجتمع المسلم، الممكّنة من الوسائل المادية فى هذا العصر . . يردد إذا عاد إلى أوطانه من محاضن الإلحاد المادى والتميع الخلقى، أفكار هؤلاء اليهود من على شاكلتهم، فى التحيُّف على الرسالة والرسول، والمنهج التربوى الإسلامى، وبخاصة ما يتعلق بالقتال .. هذا الشباب الذي ينتمى انتماء جغرافيا، لايحمل من سمات المعرفة الإسلامية إلا قشورا يتشدق بها، مغرورا بما جاء به من إلحاد وجحود لتاريخ أمته ومقوماتهاالأساسية..

ضائع مضيَّع :

هذا الشباب المعذّر ضائع مضيّع، لايعرف عن حقيقة تاريخه الإسلامى ، وتراث هذا التاريخ الفكري إلا شيئا ضئيلا، لا يغنى فى حماية هذا الشباب من اللوثات المنحرفة أى غناء ؛ لأنه شباب ضيعه أهله، وعيشوه فى جهالة مغلفة بشعارات دعائية، وتقاليد مستوردة من وراء البحار والسهوب، وأنظمة جوفاء فى أشباح جامعية، وصور دراسية، فى أوطانه المسلمة، وليس في هذه النظم والدراسات إلا تزجية لهذا الفراغ ، يتلقى فيها الشباب المسلم قشورا من المعرفة عسرة الهضم لاتنفع، ولكنها تضر، ثم تنتهى هذه الدراسات الخاوية بجوار الوظيفة أو البعث إلى أحضان سدنة العلم الخادع من طوائف المستشرقين من اليهود ومن على شاكلتهم فى جامعات كثيرة فى هذا العالم ، تقوم على تدريس كل مايتعلق بالعلوم الإسلامية من: تفسير وحديث وفقه وما إلى ذلك مما هو مشاهد، ليصنعوا من هذا الشباب خبزة سهلة الازدراء فى صورة « دكترة » تتيح له أن يتبوأ أعلى المناصب فى وطنه المخدوع، وهو مجلل بالجهالة لتاريخ أمته ومجتمعه، ولكنه مسربل بما لقّن من معارف غريبة عنه، وغريب هو عنها، لتكون مطية له ولأمثاله إلى اعتلاء مناصب التوجيه الفكرى والاجتماعى ..

وهؤلاء السدنة للبحث العلمى وحرية الفكر من أهل الكتاب ومن على شاكلتهم، المندسون وراء الحياد الفكرى يستقبلون هذا الشباب المسلم وهو مفعم الصدور بإعظامهم،

وإعظام حياة أوطانهم وجماعاتهم، والاستطارة فرحا بمظاهر حضارتهم المادية، وهم به فرحون فرح الصائد بما يقع فى شباكه من صيد ثمين، ثم يأخذون فى تلقينه مايريدون أن يهيئوه له ، ليكون حين عودته إلى وطنه ومجتمعه المسلم لسانهم الناطق، وعينهم الباصرة، وآذانهم اللاقطة، ويدهم الباطشة بكل فضيلة ، وكل فكر إسلامى، وكل سلوك حميد، ومايزالون به يتابعونه حتى يصلوا فى صنعه إلى خبىء ضمائرهم من المرتبة العليا فى التحبب إليهم بانحرافه عن العقيدة الإسلامية إلى إلحاد مغرور منتفخ متعال مستكبر بما توهّم أنه وصل إليه من علم ومعرفة وتفكير جديد، وديمقراطية، وعلمانية، وعندئذ يرسلونه إلى وطنه المسلم، يحمل لقبا علميا ضخما، وفى يمينه حفيظة الوصايا له ، وإليه، وبه، عند من بيدهم أزمَّة الأمور فى ميادين الحياة فى المجتمع ..

أخطر المخاطر :

إن أخطر شىء فى حياة المجتمع المسلم وحاضره الذليل الممزق ضياع شبابه من حياته ووجوده بهذا الوباء اليهودى المتفشى مع انفجار الثراء الفاحش فى كثير من أوطان الإسلام، ومع الجهل الأفحش فى معرفة طرائق استخدام هذا الثراء لمصلحة المجتمع المسلم، وذلك الوباء هو وباء بعث الشباب إلى جامعات أعداء المجتمع المسلم، دون أن يكون لدى هذا الشباب حصانة خلقية وفكرية تحمى سلوكه من الانحراف وتصون تفكيره من الانزلاق إلى منحدرات الفكر اليهودى المحجّب والمكشوف على سواء !

إن شبابنا المسلم ـ وهو عصب حياتنا ـ لو كان فى دراسته المنهجية فى جميع مراحل التعليم قد درس ـ مثلا ـ السيرة النبوية دراسة موضوعية منهجية تربوية ـ كما فى هذه الدراسات ـ ودرس تاريخ الفتوحات الإسلامية، ولاسيما فى مطالعها الأولى التى كانت صورة متطابقة للمنهج النبوى فى تربية المجتمع المسلم، ودرس معها الانزلاقات المحرفة لهذا المنهج عن سمته الذى وضعه فيه النبى ﷺ ، لما كان من بينه من يقبل دعاوى الأعداء والأدعياء، ولاسيما هذه الدعوى البالية، دعوة انتشار الإسلام بالسيف والقهر وسفك الدماء وجمع المال ـ كما يزعم اليهود ومن على شاكلتهم ـ وهى دعوى باطلة ـ كما أسلفنا ـ حورب بها المد الإسلامى وهو فى قمة قوته واندفاع تياراته، حاملا دعوى الهدى والحق، وكان المجتمع المسلم قد بدأ يتحول عن مجراه التربوى السلوكى، الذى قام على أساس الوحدة التكافلية، حيث انصدعت صفات تلك الوحدة، وتناثرت إلى دويلات هزيلة، يكيد بعضها لبعض ، والعدو اليهودى من ورائها هو ومن على شاكلته، يشعل نيران الفتن هنا وهناك ، فانحسر تيار المسيرة المسلمة، وجمد ووقف مكبلا بأغلال الفرقة التى

لم يغب عنه ليلها المظلم .

وأصحاب هذه الدعوى الزائفة البالية الكاذبة وجدوا فيها سلاحا ماضيا، يحاربون المجتمع المسلم بعد أن أناموه بها، وبأمثالها من الافتراءات الباطلة، وأفقدوه الشعور بنفسه، وحياته وتاريخه ومنهجه، ومقوماته الذاتية، وخصائصه التربوية .

التسامح الذليل :

ومن أعجب العجب فى باب محاربة اليهود ومن على شاكلتهم لهذا المجتمع المسلم، والقضاء على حيويته، وهو يحشرج تحت وطأة هذه الأكاذيب أن أعداء هذا المجتمع وجدوا من بين أبنائه من أدعياء التجدد والتجديد، والتقدمية، والحرية الفكرية ـ على حد تعبيرهم ـ من ألبسوهم خلقة التسامح والترفع عن العصبية الدينية، ليعززوا بهم وبأكاذيبهم المتخاذلة تهمة الإكراه، والقهر، والسيف، وسفك الدماء التى زعموها القوة الدافعة فى انتشار دعوة المجتمع المسلم إلى الهدى ودين الحق، حتى عمت المعمور من الأرض فى أقصر زمن، لايعرف المجتمع البشرى مثله لدعوة من الدعوات ، أو لرسالة من الرسالات الإلهية .

وقد كان هؤلاء المتخاذلون تحت ستار التسامح الذليل، والترفع المصطنع عن العصبية، أبشع وأعضل ما حورب به المجتمع المسلم، لأنهم بدعاواهم المتخاذلة الذليلة المتسامحة بالهوان كانوا كحفارى القبور للأحياء قبل أن يموتوا.

وقد عزز افتراءاتهم المتخاذلة هذه أن المجتمع المسلم كان يئن تحت كابوس الجهل المطبق، الذى طحن برحاه بعض معالم الفكر الإسلامى، واستبدل بها أضغاثا من الأساطير والخرافات والأباطيل التى ألصِقت بمنهج المجتمع الإسلامى إلصاقا، وعاش فى ظلماتها قرونا كثيرة، وهى لا تزال تسيطر على كثير من جماهيره، بل على كثير ممن يزعم أنه من أهل العلم فى أوطان هذا المجتمع المستعبد فى كثير من صور تفكيره، وأوضاعه الاجتماعية والتربوية السلوكية، وهو يرى فى فرية التسامح المتخاذل صورة براقة، يحيا فى ظل ذلها وهوانها، يتجرع كأس الموت من أيدى هؤلاء المتخاذلين المخدوعين من أبنائه المزورين عليه.

ولا ندرى كيف يطلب من مجتمع لا يملك من أمر الحياة إلا صك استعباده المضروب عليه من أعدائه أن يتسامح مع من يملك عليه أنفاسه فى حياته؟!

فيم يكون التسامح مع المتجبر فى الاستعباد، وهو لم يترك شيئا من مقومات الإنسانية إلا سلبه؟!

ألا يستحى هؤلاء المتخاذلون حين يتكلمون فى شأن تسامح المجتمع المسلم مع المجتمعات الأخرى فى جبروتها وقوتها المادية وطغيانها السلوكى، وحط أثقالها على صدر المجتمع المسلم، ليكتموا أنفاسه، حتى لا يصحو من رقدته! ويستيقظ من غفلته! وينتبه من غفوته!

الخوف من تيقظ المجتمع المسلم:

وأصحاب هذه الدعاوى الكاذبة وأنصارهم من دعاة التسامح الذليل المتخاذل يخافون أشد الخوف أن يستيقظ المجتمع المسلم من رقدته، ويصحو من غفلته، وينتبه من غفوته، ويراجع تاريخه ومنهجه فى أيام عزته وقوته ووحدته، فيصبح تركيبه الاجتماعى على أساس المؤاخاة التكافلية، ويستعيد وحدته، ويندفع مرة أخرى فى سبيل نشر دعوته، دعوة الحق والهدى والنور، ويمضى فى تبليغ رسالته على منهجى: العقيدة والفكر الاجتماعى والتربوى السلوكى، فلم يجدوا ألين عجينة من هذا الشباب المخدوع برغائبه الحيوانية فى هذا المجتمع المسلم المتدفق. بجموعه على مناهج تعليمهم، ومخطط اليهودية العالمية ومن يسير فى هذا السبيل، ينشد منها خصائص حياة جديدة، يعيش فيها لإشباع رغائبه الحيوانيه المترفة، بعد مسغبة الغرائز وجوعها، لينسى تاريخ منهجه الذى قامت على أسسه حياة مجتمعه، ويعود إلى أوطانه المسلمة مسخا للتقدمية الداعرة، ليشكل مناهجها وبرامجها فى صور براقة بالمظاهر المادية التى تسيطر على عقول الجماهير، ولاسيما الشباب، فينغمس فيها، أو بالأحرى يغرق فى أتونها وآثامها، وهذا هو الذى قد كان ، وهو الكائن اليوم فى كثير من ديار المسلمين، وهذا هو الذى يجب على المجتمع المسلم فى جميع أوطانه أن يبادر مسرعا إلى مقاومته ووقف تياره الجارف، لإنقاذ شباب الإسلام من براثن الفكر اليهودى ومن يشايعه !

رأى يدفع تهمة زائفة:

وليس معنى هذا أننا ضد بعث الشباب إلى جامعات العالم المتجدد التفكير فى الحياة والكون، لكشف أسرار الطبيعة ومظاهرها، والتعرف على مافى عناصرها من مكونات أبدعها الخالق جل شأنه، وسخرها للإنسان، لتكون آيات بينات على اقتدار خالقها ومكونها، وليفيد منها الإنسان فى حياته العقلية والروحية والمادية؛ لأن هذا أصل من أصول ديننا، وعنصر من عناصر منهجنا التربوى السلوكى .

ولكن القصد ألا يدفع بشباب الإسلام إلى مجتمعات ليس لها حوافظ اجتماعية تتلاءم مع نشأة شبابنا ومنهجه فى حياته الإسلامية، قبل أن يحصِّن هذا الشباب بما يحميه من الانحرافات الخلقية والإلحادية، التي يهدف لها يهود ومن على شاكلتهم، ومن ثم يصون عقيدته وتفكيره، ويعلى سلوكه.

ومن هنا كان من الواجب أن يسبق بعث الشباب إلى خارج أوطانه الإسلامية تحصينه خلقيا وفكريا واجتماعيا، ليكون أينما ذهب صورة ناطقة لمنهجه الإسلامي فى خلقه وتفكيره، ومعالمه الذاتية ومعارفه، وتاريخه وتربيته وسلوكه، وليس هذا التحصين كوبا من الشراب اللذيذ يقدم للشباب فيشربه متمتعا بحلاوته، متلذذا بمذاقه، متنعما بهناءته ومراءته، وإنما هو تحويل لمسيرة حياة الشباب تحويلا يجعل منه نمطا لمنهج الإسلام فى مقوماته وخصائصه وقوته الروحية والمادية واستقامته السلوكية.

وهذا بلاشك عمل شاق ، محفوف بالمعوقات التى لا يذللها إلا العزائم المرهفة الماضية التى لا تتردد، فهو عمل يحتاج إلى تخطيط، ووضع منهج تربوى إسلامى، يشمل جميع مراحل التعليم، بل يجب أن يرتبط بالبيت والأسرة، حتى يتوحد المنهج التربوى فى مراحل حياة الشباب، من البيت مدرسة الأسرة، إلى أن يصل إلى الجامعة ، والدراسات المتخصصة، ومراقبات البعوث الخارجية .. حتى لا نقع فى شرك اليهود ومن على شاكلتهم!

وهذا التخطيط في وضعه العملي يحتاج إلى نظر عميق، وبصر دقيق، ويحتاج إلى دراسة تربوية ومناهج دراسية، وإلى نوع من العلماء المسلمين العاملين المتخصصين .. مما يجب أن يعتمد على دراسة المنهج النبوي بروحه وفكرته وتطبيقه فى واقع الحياة ، والتكيف بحقائقه عمليا، ويكون أشبه بمخطط هذه الدراسات التى نقدمها، مع قدر كبير من التلطف والترفق في الاتصالات الواعية بالشباب ومراقبة سلوكه داخل دور التعليم وخارجها، مع الاعتصام بمراقبة الله الذى يعلم السر وأخفى .

علوم الإسلام ولغته:

بيد أننا ـ كما سبق ـ نرى كثيرا من جامعات العالم الأوربى تقدم دراسات إسلامية من حيث الاسم، غير إسلامية من حيث المسمى، لهؤلاء الراغبين فى لقب «الدكتور» وما أكثرهم ! تحت إشراف أحبار اليهود! ومن على شاكلتهم!

ومن ثم فإن الشباب المسلم لا يحتاج إلى أن يأخذ علوم الإسلام ومعارفه، وفنون اللغة العربية وآدابها من خارج أوطانه المسلمة؛ لأن هذه العلوم والمعارف هى تراث الإسلام ولغته، وهى بين يديه وتحت سمعه وبصره فى مكتبات الأوطان الإسلامية، لكنها تحتاج إلى إنشاء مؤسسة كبرى، تنهض بعبء جمع التراث الإسلامى وتحقيق ما يحتاج إلى تحقيق، وتنقيته من الأساطير والخرافات والأكاذيب الإسرائيلية، والأباطيل التى أدخلت على معارف الإسلام فى غفلة المجتمع المسلم، لتنشر هذا التراث بين المجتمعات الإسلامية بأفضل طرائق النشر طباعة وتصحيحا وتحقيقا، ليكون هذا النشر أقوى سند علمى للدعوة إلى الله.

والشباب المسلم يحتاج إلى من يتخصص من أفراده فى علوم الحياة، وفنون الطبيعة، والمعارف الكونية وغيرها مما تنهض بالمجتمع المسلم من كبوته، ليلحق بقافلة الحياة.. وهذه العلوم والمعارف كان للمجتمع المسلم فيها مجالات ضاعت منه آثارها فيما ضاع له من أوطان وآثار، وهى علوم إنسانية لا وطن لها، ولا اختصاص لها بجيل أو قبيل؛ لأن العلم الإنسانى العام حق مشاع للإنسانية كلها، لا وطن له ، يأخذه من يتأهل لأخذه بوسائله الفكرية والمادية والعملية.

وها نحن نرى ونشاهد صناعة اليهود ومن على شاكلتهم للأسلحة الفتاكة التى تستخدمها ضد الإسلام والمسلمين، فضلا عن الابتكارات الكثيرة فى شتى ما تحتاج إليه المجتمعات.

وللفكر المسلم شعار ينطبق أول ما ينطبق على العلوم والمعارف، ذلك أن الشعار المنهجى النبيل: هو أن الحكمة ضالة المؤمن،[1] فحيث وجدها فهو أحق بها، وأن العلم ضالة المؤمن، حيث وجده أخذه، ولكن ذلك يحتاج إلى خبرة لّماحة تحسن الاختيار بقدر المستطاع، والله تعالى من وراء القصد.

فهل يسمع الممكنون من الوسائل فى أوطان الإسلام لهذه الدعوة بإخلاص وصبر ودراسة، ويتخففون من الشعارات الدعائية فى صورها وأشكالها وألوانها الخادعة، ويوجهون المجتمع المسلم إلى العمل الصامت الدؤوب، فيما يحتاج إليه من صناعات دقيقة، ليستخرج بها كنوز أرضه ، ويحررها من أيدى أعدائه؟ لعل وعسى..

---

(١) انظر: المقاصد الحسنة (٤١٥) وكشف الخفاء (١١٥٩).

ولا يفوتنى أن أنوه بأن فى مجتمعاتنا الإسلامية علماء وشبابا على درجة كبيرة جدا من تلك المعارف .. وكثيرون منهم يعيشون فى تلك المجتمعات الأوربية التى تتيح لهم فرص الابتكارات والاختراعات، وتكافئهم بمرتبات مجزية تتعادل مع تضحياتهم بمفارقة أوطانهم، وما يبذلون من جهد فى هذا المضمار.. وإن نسينا فلا ننسى الدكتور الباز المصرى الذى قدم لأمريكا ما قدم فى مجال الأقمار الصناعية مما لا يحتاج إلى بيان...

فهل آن لنا أن نستقطب نحن هذه العقول المفكرة ونتيح لها فرص الابتكارات والاختراعات، ونساعدها على أن تقوم بإعداد الشباب إعدادا علميا حتى نستطيع أن نواجه مخططات الصهيونية ومن على شاكلتها؟ لعل وعسى..

الدين النصيحة :

هذه نصيحة ممن لا يملك إلا الكلمة يضعها بين القادرين الذين يملكون أن يحولوها إلى عمل جاد مسدد من قادة المجتمع المسلم الممكنين فى الأرض، وقد يراها المتعجلون ضربا من الخيال، ولكنها فكرة، فيها مجال لبدء عمل جاد قوى شامل، يجمع شمل المجتمع المسلم، ويصحح تركيبه الاجتماعى ، وما على الممكنين المالكين للوسائل إلا أن يبدأوا ويمكنوا المؤهلين للعمل، تحت رقابة تحاسب وتشجع، وتمنح وتمنع، حتى يكون العمل حقيقة واقعة فى حياة المجتمع المسلم، ولا يضر قادة هذا المجتمع الممكنين أن يطول بهم الزمن على ظهور النتائج؛ لأن أعمار الأمم والمجتمعات لا تقاس بالأيام والشهور والأعوام والدهور، ولكنها تقاس بما يقع فيها من أعمال.

وللمجتمع المسلم نموذجه فى انتشار دعوته إلى الله، لهداية الخلق وتحرير الأمم والشعوب من الوثنيات اليهودية وغيرها فى شتى صورها وأشكالها، وقد تم فى زمن لا يوضع فيه غيره فى مقاييس الأزمان والأعمال.

هذه نصيحة .. « والدين النصيحة» كما يروى مسلم [1] عن تميم الدارىّ ، أن النبى ﷺ قال:

«الدين النصيحة»

قلنا : لمن ؟ قال :

(١) مسلم: ١ ـ الإيمان ٩٥ (٥٥) وانظر : مسلم بشرح النووي : ٢ : ٣٧ ـ ٣٨ .

« لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ».

وليعلم كل مسلم أن الإسلام دين الله عز وجل ، وقد وعد بإظهاره على الدين كله، وسبق أن ذكرنا ذلك فى مجال تحريض المؤمنين على قتال أهل الكتاب في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [1]

وعرفنا أنهم كما قال الله:

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾

وهو الوعد الحق ، الذي تطمئن له قلوب المؤمنين ، فيدفعهم هذا إلى المضى فى الطريق على المشقة واللأواء، وعلى الكيد والحرب:

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾

وهو سبحانه لا يخلف الميعاد ، وهو الفعال لما يشاء.. يجري ما يشاء على يد من شاء وفق ما يشاء، لا تقيد إرادته بجنس من الناس ولا لون ، ولا جيل ولا قبيل، ولا زمان ولا مكان، وإنما ينصر الله من ينصره كائنا من كان.

فليتقدم صاحب الخطوة العظمي أينما كان في أرض الإسلام، وليأخذ زمام مسيرة إصلاح المجتمع ليضعه على النقطة الأولى من الخط المستقيم، على أساس المنهج النبوى الذى سبق ذكره، وكل إصلاح لا يقوم على أساس هذا المنهج النبوى إنما هو قعقعة دعائية فاسدة، كما نرى ونشاهد من وقوف الكثيرين عند حد عبارة « العدو الإسرائيلى ».. والله لا يصلح عمل المفسدين.

وليحرص الممكنون فى الأرض على إصلاح الشباب أشد الحرص؛ لأن الشباب عصب حياة المجتمع المسلم، ومن الشباب يبدأ الإصلاح الفكرى والاجتماعى ، لتغيّر هذه المناهج التى لا يتفق بعضها مع المنهج الإسلامى ، وتوضع مكانها مناهج تربوية إسلامية تستمد روحها وقوتها وصلاحيتها من المنهج النبوى الذى قام على دعائمه بناء المجتمع الإسلامى فى قيادة الإنسانية ونشر الهداية وتبليغ الرسالة، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

علاج ضرورى :

وبهذا يتبين أن القتال فى الإسلام كان علاجا ضروريا لمرض فجور الكفر وعتو العناد المستكبر، بعد اليأس من الشفاء بالحجة البينة، والبيان المنير، وبعد عرض الموادعة بالجزية ـ كما أسلفنا ـ للتأمل والنظر فى الدلائل الهادية إلى الحق ..

وسيلة لا غاية :

ومع هذا فإن الجهاد فى الإسلام وسيلة لا غاية [1] ، وطريق إلى هدف إذا وصل إليه المجتمع المسلم وقف عنده يحميه ويذود عنه، لا يجاوزه ولا يتعداه؛ لأن الجهاد بأنواعه الحجاجية والقتالية ـ كما أسلفنا ـ إنما يستهدف هداية الناس أينما كانوا أو كيفما كانوا ، على كلمة سواء، هى كلمة التوحيد التى تجعل من المجتمع المسلم كله، على اختلاف أوطانه وأجناسه وألوانه ولغاته، ومؤثراته، وتأثراته البيئية وحدة إيمانية متساوية الحقوق والواجبات.

ومن هنا كان على المجتمع المسلم ألا ينفر إلى القتال إلا بعد أن يستنفد كل ما يملك من طاقات فى قوة البيان والحجاج العقلى ، والرغائب الوجدانية، والدوافع العاطفية التى تجذب النفوس إلى الانضواء تحت لواء المؤاخاة التكافلية ـ ومن ثم أسلم بعض اليهود كما سبق ـ وهذه المؤاخاة التكافلية أساس بناء المجتمع الإسلامى، وهى الوسيلة العظمى فى المنهج النبوى لتجميع الإنسانية في وحدة إيمانية متحررة من العبودية المادية المفرّقة لوحدة الإنسانية فى نشأتها.

وإلا بعد أن يستنفد أعظم ما يملك من طاقات روحية يصب في قالبها منهج دعوته وهدايته، لتكون صورة لنقاء فطرته وصفاء مقاصده ، وإخلاص مؤاخاته، ليستطيع أن ينهض بعبء القيادة الإنسانية إلى آفاق متجددة من صور الحضارة الفكرية والاجتماعية، ليقاوم عرامة الإلحاد المادى الذى يخطط له اليهود ومن على شاكلتهم ـ كما سبق ـ هذا الإلحاد المادي الذى جعل من الإنسانية أشلاء من الأشباح الهامدة، والهياكل الخامدة، والصور الجامدة، وأشتاتا متنافرة الوسائل والأهداف والمقاصد فى الحياة، لا تعيش إلا لشهواتهاالدنيا.

والمجتمع الإسلامى ـ كما أسلفنا ـ نشأ مجتمعا متكافلا فى ظل وحدة المؤاخاة

---

(١) محمد رسول الله : ٣ : ٢٢٥ وما بعدها بتصرف.

الفردية والجماعية، وهو بمقتضى هذه الوحدة، وبما آتاه الله في منهجه التربوي السلوكى من خصائص القيادة الإنسانية يجعله خير أمة أخرجت للناس، وكلف أن ينهض بالدعوة إلى نشر الحق إيجابا وسلبا :

إيجابا: بإقامة معالم التوحيد، وإخلاص العبودية لله وحده، والتحرر المطلق من عبودية المخلوقين، فى شتى صورها، واختلاف أشكالها ومصادرها، ومواردها الوثنية الملحدة، كما يفعل اليهود ومن على شاكلتهم !

وسلبا: بالنهوض المشمِّر عن قوة الإيمان إلى تقويض دعائم الشرك العتىّ والوثنية البليدة المتحجرة اللذين استعبد بهما الطغاة البغاة الناس من أجل لقمة العيش ، كما يفعل اليهود ومن على شاكلتهم !

وهى فى منهج المجتمع الإسلامى فى حق كريم لكل حيّ على ظهرهذه الأرض، لكن الفكر اليهودى المادى، والوثنية الفكرية القديمة والحديثة لا تعطى هذا الحق الكريم لأحد من المستضعفين فى الحياة إلا فى أطباق سوداء من الذل والمهانة، وتمريغ الإنسانية فى حمأة الوحل المذل ، ونزيز الهوان !

تحرير الإنسانية:

وتحرير الإنسانية من ربقة هذه المخططات اليهودية الطاغية،وتلك العبودية المادية العاتية ـ وهى أحط صور الوثنية في القديم والحديث ـ هو الطريق الموصل إلى إعلاء منهج الحق الذى من أجله كان الجهاد، ليصد المعوقين لمسيرة الدعوة وتبليغ الرسالة، فلابد إذن من تعبيد هذا الطريق وتطهيره من أوضار تلك المخططات اليهودية فى القديم والحديث، ليصل المجتمع الإسلامى إلى هدفه فى إقامة معالم الحق، وتحرير العقول من الاستعباد الفكرى الذى خدع المجتمع الإسلامى، ولا يزال يخدعه ، حتي أخرجه عن معالم منهجه، وإقرارا للعدل فى حياة الناس، ليشعروا أنهم جميعا عباد الله الذى خلقهم، وهو الذى يرزقهم، وليسوا عبيد السدنة اليهودية الطاغية والوثنية الباغية !

إعلاء كلمة الله:

وقد رسم المنهج النبوى فى إطار الدعوة إلى الله ، ونشر الحق الإلهى ، الخطوط العريضة التى تتألف منها صورة الجهاد فى سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الحق التى تنبع منها روافد الفضائل الإنسانية، لتستقى بنميرها تلك القلوب المؤمنة، وتجذب إلى منازلها الأفئدة

المستعدة بفطرتها لتقبل الهداية، وهي تنهمر كالغيث المتنزل من سماء الإيمان بالله إلها واحدا ، موصوفا بكل كمال يليق بجلال ألوهيته.

وهذا المنهج قد جعل من الجهاد وسيلة ـ كما أسلفنا ـ لبيان الحق بيانا لا يدع شبهة فى نفس من يريد الإيمان ، ولبيان أن إرساء قواعد الحق مصدر كل خير في هذه الحياة وأن الشرك بالله مصدر كل شر وفساد فى الأرض، وأن الدعوة إلى الحق واجبة على كل فرد أو جماعة فى المجتمع الإسلامى، أينما كانت أممه وشعوبه فى أوطانها من هذه الأرض .

وجعل الجهاد وسيلة إلى بيان الحق وإقراره فى القلوب والعقول؛ لأن الوثنيين الماديين من اليهود ومن على شاكلتهم ـ كما أسلفنا ـ أعداء كل خير وهدى، ولا يتركون الحق الذى هو هدف أصحاب الدين القيم يمشى على الأرض مطمئنا، يعرض نفسه على الناس، وهم آمنون مطمئنون؛ لأن هؤلاء يعلمون أن هذا الحق هو فطرة الله التى فطر عباده عليها ، ولكن صدأ الجهالة الباغية ، وفجور الوثنية الطاغية ، غطى على أبصارهم وبصائرهم، فضلوا طريقه، فإذا ذكروا به ورأوه فى حقيقته الوضيئة المضيئة المشرقة الجذابة، لم يملكوا أنفسهم أن ينشعبوا إلى اعتناقه ـ كما عرفنا ـ وفى ذلك طاقة الطاقات وداهية الدواهى على هؤلاء اليهود ومن على شاكلتهم؛ لأن ذلك يزلزل سلطان وثنيتهم وتحكمهم فى مصائر المستضعفين فى الأرض، ويقوض بنيان سيطرتهم على العقول المخدوعة والقلوب الفارغة بما فى أيديهم من سراب مضلِّل، ولن يستسلموا أو يسلموا بمجرد عرض الحق فى صورته المشرقة ، ولن تقنعهم بيناته وحججه وبراهينه، لأنهم معاندون مكابرون، ولكنهم يسهبون بكل ما لديهم من قوة مادية مدمرة، مدافعين عن وثنيتهم الفاجرة، لا يبالون أن يسفكوا فى سبيلها الدماء، ويخربوا الديار، ويدمروا الحياة.

وجوب إعداد القوة :

ومن ثم كان لابد للمجتمع الإسلامي، وهو حامل راية الدعوة إلى الله عز وجل، وتبليغ رسالته، من إعداد نفسه بالقوة الزاجرة المرهبة لليهود ومن على شاكلتهم ، ليصد بها طغيان هؤلاء وأولئك ، وليفتح الطريق أمام الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، لإعلاء كلمته فى الآفاق: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

﴿سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ۝٥٩ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ (١).

يقول ابن جرير: (٢) : يقول تعالى ذكره: إن شر الدواب عند الله الذين كفروا الذين عاهدت منهم يا محمد، يقول: أخذت عهودهم ومواثيقهم ألا يحاربوك، ولا يظاهروا عليك محاربا لك، كقريظة ونظرائهم ممن كان بينك وبينهم عهد وعقد، ثم ينقضون عهدهم ومواثيقهم، كلما عاهدوا دافعوك وحاربوك وظاهروا عليك، وهم لايتقون الله ، ولا يخافون فى فعلهم ذلك أن يوقع بهم وقعة تجتاحهم وتهلكهم.. وروى بسنده عن مجاهد قال: قريظة مالئوا على محمد يوم الخندق أعداءه.

وجاء فى المنار (٣) : المراد بهم طوائف يهود المدينة، ولا يظهر التبعيض فيه إلا إذا كانت الآيات فى يهود بلاد العرب كلهم، وقيل: قريظة، بناء على أن أصل الكلام فى يهود المدينة، وهم منهم، وقيل: زعماؤهم الذين تولوا عقد العهد معه ﷺ، بناء على أن أصل الكلام فى بنى قريظة، وإنما قال «ينقضون» بفعل الاستقبال ، مع أنهم كانوا قد نقضوه قبل نزول الآية، لإفادة استمرارهم على ذلك ، وأنه لم يكن هفوة رجعوا عنها وندموا عليها .. بل إنهم ينقضونه « فى كل مرة » وإن تكرر ، وهو يصدق على عهود طوائف اليهود الذين كانوا حول المدينة فى جملتهم ، وهم ثلاث طوائف..

وبنو قريظة كانوا أشدهم كفرا ، فقد روى أنه تكرر عهده ﷺ لهم . قال بعض المفسرين: وعزى إلى ابن عباس: هم بنو قريظة نقضوا عهد رسول الله ﷺ ، وأعانوا عليه بالسلاح يوم بدر، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا، فعاهدهم الثانية، فنقضوا العهد ، ومالئوا الكفار على رسول الله ﷺ يوم الخندق، وركب زعيمهم كعب بن الأشرف إلى مكة، فحالفهم على محاربة النبى ﷺ « وهم لا يتقون » الله فى نقض العهد، ولا يتقون ماقد يترتب عليه من قتالهم والظفر بهم ..

وعبر عنهم بالدواب، وهو اللفظ الذى غلب استعماله فى البهائم ذوات الأربع، أو فيما يركب منها، لإفادة أنهم ليسوا من شرار البشر فقط، بل هم أضل من عجماوات الدواب؛ لأن فيها منافع للناس، وهؤلاء اليهود لا خير فيهم، ولا نفع لغيرهم منهم، فإنهم

---

(١) الأنفال: ٥٥ ـ ٦٠. (٢) تفسير الطبرى: ١٠ : ٢٥.

(٣) تفسير المنار: ١٠ : ٤٨ ـ ٥٠ بتصرف.

لشدة تعصبهم لجنسهم قد صاروا أعداء لسائر البشر، كما قال في وصف أمثالهم:

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾(١).

وكما قال:

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾(٢).

وقال « الذين كفروا » فعبر عنهم بفعل الكفر دون الوصف «الكافرون » للإشارة إلى أنهم كانوا مؤمنين ، فعرض لهم الكفر، وهذا ظاهر في جملة اليهود الذين كفروا بمحمد ﷺ ، كما كفروا بمن قبله، وهم فى عرف القرآن متكافلون متشابهون ، آخرهم فى ذلك كأولهم، وهو أظهر في يهود المدينة الذين كانوا في عصر الرسالة المحمدية ، فإنهم ـ كما أسلفنا ـ كانوا يعلمون أن الله تعالى سيبعث النبى الكامل ، الذى بشر به موسى فى التوراة.. وكانوا يعلمون أنه سيبعث من العرب، لأن من نصوص التوراة الموجودة إلى الآن أنه تعالى يبعث لهم نبيا مثل موسى بين بنى إخوتهم، أى بنى إسماعيل، وكانوا يطمعون في أن يكون هذا النبى منهم، ويرون أنه يكفى فى صحة خبر التوراة ظهوره بين العرب وإن لم يكن منهم؛ لأن النبوة بزعمهم محتكرة محتجنة لبني إسرائيل، على ما اعتادوا من التحريف والتأويل !

وقال « فهم لا يؤمنون » لأن كلمة « كفروا » لا تقتضى الثبات على الكفر دائما ، فعطف عليها الإخبار بأن كفرهم دائم ، لا يرجعون عنه في جملتهم ، حتى ييأس الرسول والمؤمنون مما كانوا يرجون من إيمانهم، وهذا لا ينافى وقوع الإيمان من بعض اليهود ، وقد وقع ـ كما سبق ـ وهذا الخبر من أنباء الغيب ...

حقا ، إنهم شر الدواب !

إنهم هؤلاء الذين كفروا حتى بلغ بهم الكفر ألا يصير حالهم إلى الإيمان ! (٣).

إنهم هؤلاء الذين ينقضون عهدهم فى كل مرة ولا يتقون الله فى كل مرة !

إنهم هؤلاء الذين كفروا ولجوا فى الكفر، ففسدت بذلك فطرتهم، وباتوا بذلك شر الدواب عند الله !

---

(١) الفرقان : ٤٤ . (٢) الأنفال : ٢٢ . (٣) فى ظلال القرآن : ٣ : ١٥٤١ بتصرف.

إنهم هؤلاء الذين تجردوا من خصيصة التقيد بالعهد، وانطلقوا من كل قيد، كما تنطلق البهيمة، لولا أن البهيمة مقيدة بضوابط تحكمها، وهؤلاء لا ضابط لهم، فهم بذلك شر الدواب عند الله !

إنهم هؤلاء الذين لا يستطيع أحد أن يطمئن إلى عهدهم وجوارهم !

ومن ثم كان جزاؤهم هو حرمانهم الأمن، كما حرموا غيرهم الأمن، وكان جزاؤهم هو تخويفهم وتشريدهم، والضرب على أيديهم بشدة لا ترهبهم وحدهم، إنما ترهب من يتسامع بهم ممن وراءهم من أمثالهم !

والرسول الحبيب المحبوب ﷺ ـ ومن بعده من المسلمين مأمورون ـ إذا التقوا باليهود ومن على شاكلتهم فى القتال .. أن يصنعوا بهم ذلك الصنيع :

﴿ فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون ﴾ .

وإنه لتعبير عجيب، يرسم صورة للأخذ المفزع ، والهول المرعب ، الذى يكفى السماع به للهرب والشرود!

فما بال من ينزل به هذا العذاب الرعيب الرهيب ؟

إنها الضربة المروعة، يأمر الحق تبارك وتعالى رسول الله ﷺ أن يأخذ بها هؤلاء اليهود الذين مردوا على نقض العهد، وانطلقوا من ضوابط الإنسان، ليؤمن المعسكر الإسلامى أولا، وليدمر هيبة الخارجين عليه أخيرا ، وليمنع كائنا من كان أن يجرؤ على التفكير فى الوقوف فى وجه المد الإسلامى من قريب أو من بعيد..

إنها طبيعة هذا المنهج التى يجب أن تستقر صورتها فى قلوب العصبة المؤمنة ..

إن هذا الدين لابد له من هيبة، ولابد له من قوة ، ولابد له من سطوة، ولابد له من الرعب الذى يزلزل الطواغيت حتى لا تقف يهود للمد الإسلامى، وهو ينطلق لتحرير «الإنسان» فى «الأرض» من كل طاغوت ..

والذين يتصورون أن منهج هذا الدين هو مجرد الدعوة والتبليغ ، في وجه العقبات المادية من قوى الطاغوت اليهودى، هم ناس لا يعرفون شيئا عن حقيقة هذا الدين !

وهذا هو الحكم الأول: يتعلق بحالة نقض العهد فعلا مع المعسكر الإسلامي، وما ينبغى أن يتبع فى ضرب الناقضين للعهد وإرهابهم، وإرهاب من وراءهم بالضربة

القاصمة المروعة الهائلة.

فأما الحكم الثاني: فيتعلق بحالة الخوف من نقض العهد وتوقع الخيانة، وذلك بظهور أفعال وأمارات تدل على ذلك :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾

يقول ابن جرير [١] : يقول تعالى ذكره: وإما تخافن يا محمد من عدو لك ، بينك وبينه عهد وعقد أن ينكث عهده ، وينقض عقده، ويغدر بك، وذلك هو الخيانة والغدر «فانبذ إليهم على سواء » يقول: فناجزهم بالحرب، وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم، بما كان من ظهور آثار الغدر والخيانة منهم ، حتى تصير أنت وهم على سواء في العلم بأنك لهم محارب، فيأخذوا للحرب آلتها، وتبرأ من الغدر «إن الله لا يحب الخائنين » الغادرين بمن كان منه في أمان وعهد .. أن يغدر به ، فيحاربه قبل إعلامه إياه أنه له حرب، وأنه قد فاسخه العقد.

فإن قال قائل: وكيف يجوز نقض العهد بخوف الخيانة، والخوف ظن لا يقين؟

قيل: إن الأمر بخلاف ما إليه ذهبت ، وإنما معناه: إذا ظهرت آثار الخيانة من عدوك، وخفت وقوعهم بك، فألق إليهم مقاليد السلم، وآذنهم بالحرب. وذلك كالذى كان من بني قريظة، إذ أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول الله ﷺ، ومحاربتهم معه بعد العهد الذي كانوا عاهدوا رسول الله ﷺ على المسالمة، ولن يقاتلوا رسول الله ﷺ، فكانت إجابتهم إياه إلى ذلك موجبا لرسول ﷺ خوف الغدر به وبأصحابه منهم، فكذلك حكم كل قوم أهل موادعة للمؤمنين، ظهر لإمام المسلمين منهم من دلائل الغدر مثل الذى ظهر لرسول ﷺ وأصحابه من قريظة منها، فحق على إمام المسلمين أن ينبذ إليهم على سواء ، ويؤذنهم بالحرب.

ومعنى قوله «**على سواء** » أى حتى يستوى علمك وعلمهم بأن كل فريق منكم حرب لصاحبه لا سلم . وقيل : نزلت الآية فى بنى قريظة .

إن الإسلام [٢] يعاهد ليصون عهده، فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهرة وعلانية، ولم يخن ولم يغدر ، ولم يغش ولم يخدع ، وصارح الآخرين بأنه نفض يده من

---

(١) تفسير الطبرى : ١٠ : ٢٦ بتصرف.

(٢) فى ظلال القرآن: ٣:١٥٤٢ بتصرف.

عهدهم. فليس بينه وبينهم أمان.. وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة، وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة .. إنه لا يبيت للآخرين بالهجوم الغادر الفاجر، وهم آمنون مطمئنون إلى عهود ومواثيق لم تنقض ولم تنبذ، ولا يروع الذين لم يأخذوا حذرهم ، حتى وهو يخشى الخيانة من جانبهم ..

فأما بعد نبذ العهد فالحرب خدعة؛ لأن كل خصم قد أخذ حذره، فإذا جازت الخدعة عليه فهو غير مغدور به، إنما هو غافل ! وكل وسائل الخدعة حينئذ مباحة؛ لأنها ليست غادرة !

إن الإسلام يريد للبشرية أن ترتفع ، ويريد للبشرية أن تعف، فلا يبيح الغدر فى سبيل الغلب، وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد، ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة.

إن الإسلام يكره الخيانة، ويحتقر الخائنين من هؤلاء اليهود، ومن على شاكلتهم الذين ينقضون العهود، ومن ثم لا يحب للمسلمين أن يخونوا أمانة العهد فى سبيل غاية مهما تكن شريفة ..

إن النفس الإنسانية وحدة لا تتجزأ، ومتى استحلت لنفسها وسيلة خسيسة، فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة..

وإن مبدأ تبرير الوسيلة بالغاية غريب عن الحس الإسلامى والحساسية الإسلامية ؛ لأنه لا انفصال فى تكوين النفس البشرية وعالمها بين الوسائل والغايات ..

إن الشط الممرع لا يغرى المسلم بخوض بركة من الوحل، فإنه لابد أن تلوثه الأقدام الملوثة فى النهاية ..

من أجل هذا كله يكره الله الخائنين ويكره الله الخيانة :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾

ويجب أن نذكر أن هذه الأحكام كانت تتنزل والبشرية بجملتها لا تتطلع إلى مثل هذا الأفق المشرق.. لقد كان قانون الغابة هو قانون المتحاربين، حتى ذلك الزمان .. قانون القوة التى لا تتقيد بقيد متى قدرت ـ كما نرى ونشاهد ما يحدث فى الأرض المحتلة تماما ـ ويجب أن نذكر هنا أن قانون الغابة هو الذى ظل يحكم المجتمعات الجاهلية كلها بعد ذلك

إلى القرن الثامن عشر الميلادى ، حيث لم تكن أوربا تعرف شيئا عن المعاملات الدولية، إلا ما تقتبسه فى أثناء تعاملها مع النظام الإسلامى .. ثم هى لم ترتفع قط حتى اللحظة إلى هذا الأفق فى عالم الواقع ، حتى بعدما عرفت نظريا ما يسمى القانون الدولى !

وعلى الذين يَبْهَرهم « التقدم الفني في صناعة القانون » أن يدركوا حقيقة « الواقع» بين الإسلام والنظم المعاصرة جميعا !

وفي مقابلة هذه الصناعة وهذه النظافة يعد الله المسلمين النصر، ويهون عليهم أمر هؤلاء اليهود ومن على شاكلتهم :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾

فتبييتهم الغدر والخيانة لن يمنحهم فرصة السبق؛ لأن الله لن يترك المسلمين وحدهم ، ولن يُفلت الخائنين لخيانتهم .. والذين كفروا من هؤلاء أضعف من أن يعجزوا الله حين يطلبهم ، وأضعف من أن يعجزوا المسلمين والله عز وجل ناصرهم.

فليطمئن أصحاب الوسائل النظيفة ــ متى أخلصوا النية فيها لله ــ من نتيجة المعركة مع أصحاب الوسائل الخسيسة. فإنما هم منصورون بالله الذي يحققون سنته في الأرض، ويعلون كلمته في الناس، وينطلقون باسمه .. يجاهدون ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده بلا شريك.

وفى هذه الآية ــ كما جاء فى المنار ــ [1] دليل على أن ما أوجبه الإسلام من المحافظة على العهود مع المخالفين من أعدائه المخالفين له فى الدين ، وما حرمه من الخيانة لهم فيها، وما شرعه من العدل والصراحة فى معاملتهم .. ليس عن ضعف ولا عن عجز، بل عن قوة وتأييد إلهى، وقد نصر الله تعالى المسلمين على اليهود الخائنين الناقضين لعهودهم، وثبت بهذا أن قتال المسلمين لهم وإجلاءهم لبقية السيف منهم من جوار عاصمة الإسلام، ثم من مهده ومعقله «الحجاز» ــ كما سيأتى ــ كان عدلا وحقا .

دستور الإعداد للقتال:

ويتخذ الإسلام للنصر عدته الواقعية التى تدخل فى طوق العصبة المسلمة[2] ،فهو لا يعلق أبصارها بتلك الآفاق العالية إلا وقد أمن لها الأرض الصلبة التى تطمئن عليها أقدامها ، وهيأ لها الأسباب العملية التى تعرفها فطرتها وتؤيدها تجاربها، وإلا إذا أعدها هى للمعركة

---

(١) تفسير المنار : ١٠ : ٥٣ بتصرف.

(٢) فى ظلال القرآن : ٣ : ١٥٤٣ بتصرف .

الواقعية التي تحقق هذه الغايات العلوية:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

وقد علم من الآيات التي قبل هذه ـ كما في المنار ـ [1] أن أهل الكتاب من اليهود، الذين عقد النبي ﷺ معهم العهود التي أمنهم بها على أنفسهم وأموالهم وأنه لا إكراه في الدين، قد خانوه ونقضوا عهده، وساعدوا عليه أعداءه من المشركين الذين أخرجوه هو ومن آمن به من ديارهم ووطنهم، ثم تبعوهم إلى مهجرهم، يقاتلونهم فيه، وأنه بذلك صار أهل الحجاز الذين كفروا بما جاء به من الحق حربا له، المشركون وأهل الكتاب سواء، فناسب بعد ذلك أن يبين الله تعالى للمؤمنين ما يجب عليهم فى حال الحرب التى كانت أمر واقعا، لم يكونوا هم المحدثين له ولا البادئين بالعدوان فيه، كما أنه سنة من سنن الاجتماع البشرى فى المصارعة بين الحق والباطل، والقوة والضعف، وذلك قوله عز وجل:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾

إن الشريعة الإسلامية واقعية تواجه الواقع البشرى بالحل العملى، وما دام الصراع بين الحق والباطل والخير والشر سنة من سنن هذا الاجتماع البشرى، وما دامت الموعظة الحسنة لا تجدى، ولا تنفع عند أصحاب النفوس المريضة، ولا ترد ظلما ولا تدفع عدوانا، فلابد للحق من قوة يدفع بها، حتى تتحقق سنن الله عز وجل فى النصر.

ولهذا أمر الحق تبارك وتعالى بإعداد القوة التى ترهب هؤلاء اليهود ومن على شاكلتهم حتى لا يضيع الحق، ويقف هؤلاء وأولئك عند حدودهم.

وقوله: «**وأعدوا**» يدفعنا إلى الاستعداد بما فى الطوق ، وهذا الاستعداد فريضة تصاحب فريضة الجهاد، وهذه الكلمة واسعة الدلالة، تشمل كل ما يمكن الاستعانة به فى مقاومة هذا الطغيان الجائر، من قوى مادية ومعنوية، على سواء ...

ولا تكون هذه الاستعانة إلا حين نمتلك من القوة ما يتفوق على ما عند هؤلاء اليهود ومن على شاكلتهم من حيث الكم والنوع، وهذا يدفعنا بالتالى إلى التصنيع الحربى من جديد، بما يتناسب وفنون القتال فى عالمنا المعاصر، وواضح أننا كأمة إسلامية لنا فى هذا

---

(١) تفسير المنار: ١٠ : ٦٠ بتصرف.

الميدان تاريخ نعتز به، ويعرفه القاصي والداني، وقد كنا في بداية هذا القرن العشرين نبيع السلاح لغيرنا، أما الآن فإننا نعيش واقعا أليما لا يحتاج إلى تعليق!

ومن ثم فإن هذه الآية الكريمة تدفعنا دفعا، وهي تحمل الأمر بالإعداد، إلى التصنيع الحربى، وهو يحتاج إلى عقل سليم، وجهد كبير، وعلم واسع بفنون الحرب، وهنا نجد فى نفس الآية كلمة « ما استطعتم » وهى تؤيد ما قررته كلمة «وأعدوا » كما نجد كلمة «ترهبون » وهى تقرر ذلك فى جلاء ووضوح ..

حقا إنه لابد للإسلام من قوة ينطلق بها فى الأرض «لتحرير» الإنسان ...

وأول ما تصنعه [1] هذه القوة فى حقل الدعوة الإسلامية أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم فى اختيارها ، فلا يصدوا عنها، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها.. وطالما أحس فى قرارة نفسى تجاه الذين يعتنقون الدين القيم فى عصرنا هذا، وقد عايشت بعضهم من جنسيات كثيرة، بعون الله وتوفيقه .. بالإشفاق عليهم بعد دخولهم في هذا الدين، وبعضهم كان من أهل الكتاب، ومصدر هذا هو حال الأمة الإسلامية ، الذي لا يدفع ولا يحمى !

ومع كل هذا فإن الدين القيم هو دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها.. ومن ثم فإن الداخلين فيه تدفعهم هذه الفطرة دفعا، وتجعلهم يشعرون بعظمته شعورا أصيلا، وترفعهم إلى حمل راية هذا الحق مهما تحملوا فى سبيل ذلك من عقبات !

والأمر الثانى الذى تصنعه هذه القوة، هوأن ترهب أعداء هذا الدين القيم، من اليهود ومن على شاكلتهم، فلا يفكروا ــ مجرد تفكير ــ فى الاعتداء على المسلمين بحال من الأحوال!

والأمر الثالث الذى تصنعه هذه القوة، هو أن يبلغ الرعب بهم ألا يفكروا ــ مجرد تفكير أيضا ــ فى الوقوف فى وجه المد الإسلامى ، وهو ينطلق لتحرير الإنسان كله فى «الأرض» كلها!

والأمر الرابع الذى تصنعه هذه القوة، هو أن تحطم كل قوة فى الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية ، فتحكم الناس بشرائعها هى وسلطانها.. ومن ثم تكون السعادة !

إن الإسلام ليس نظاما لاهوتيا يتحقق بمجرد استقراره عقيدة فى القلوب، وتنظيما

---

(١) فى ظلال القرآن : ٣: ١٥٤٣ بتصرف.

للشعائر ، ثم تنتهى مهمته ! إنما هو منهج عملى واقعى للحياة يواجه مناهج أخرى تقوم عليها سلطات، وتقف وراءها قوى مادية!

ومن ثم فلا مفر للإسلام ـ لإقرار منهجه الربانى ـ من تحطيم تلك القوى المادية الطاغية الباغية التى يقود حركتها اليهود ومن على شاكلتهم ، ولا مفر من تدمير هذا المخطط الصهيونى !

وينبغى للمسلم ألا يتمتم ولا يجمجم وهو يعلن هذه الحقيقة الكبيرة.. ينبغى ألا يستشعر الخجل من حقيقة منهجه الرباني .. ينبغى أن يذكر أن الإسلام حين ينطلق فى الأرض إنما ينطلق لإعلان تحرير الإنسان بتقرير ألوهية الله وحده، وتحطيم ألوهية العبيد !

إنه لا ينطلق بمنهج من صنع البشر ، ولا ينطلق لتقرير سلطان أو جنس كما يفعل اليهود ومن على شاكلتهم، إنه لا ينطلق لاسترقاق العبيد، ليقوموا بالزراعة كالرومان، ولا لاستغلال الأسواق والخامات كالرأسمالية الغربية، ولا لغرض مذهب بشري من صنع بشر جاهل قاصر كالشيوعية وما إليها من المذاهب البشرية الهدامة !

إنما ينطلق بمنهج ربانى كريم، لتقرير ألوهية الله وحده وسلطانه، لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعبيد !

وإذا كانت الغاية من إعداد القوة ـ كما أسلفنا ـ إرهاب العدو وتخويفه، فمن المعلوم أن هذا لا يتأتى عن طريق شراء الأسلحة من الخارج، ولا سيما إذا كان ذلك لا يتم فى الغالب إلا عن طريق العدو اليهودى ومن على شاكلته، والكفر ملة واحدة.. ومن ثم فهم يعرفون ما عندنا من سلاح، ويعرفون موطن النقص في إعدادنا ، وعليه فهم لا يخافون منا ولا يرهبون جانبنا ، وحروبنا الحديثة مع الصهيونية خير شاهد!

والآية تدفعنا دفعا إلى أن نبذل كل ما في استطاعتنا:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾

والاستطاعة فى الواقع ـ كما يقول المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود [1] ـ لا حدود لها ، وهذا الإعداد إذن لا ينتهى، ولا يفتر فى يوم من الأيام.

ومن ثم فإن كلمة «**قوة**» وردت نكرة، لتشمل جميع أنواع القوة ... وإذا نظرنا إلى

---

(١) الجهاد : ١٤ من أعمال المؤتمر الرابع للبحوث الإسلامية ١٩٦٨م .

تاريخنا كأمة وجدنا معالم فى هذا المقام، حيث تسلحت أمتنا حينا من الدهر بما أخاف أعداءها، فعاشت مهيبة الجانب، مرهوبة المكانة !

ومن المعلوم بالبداهة ــ كما فى المنار(١) ــ أن إعداد المستطاع من القوة يختلف امتثال الأمر الربانى به باختلاف درجات الاستطاعة فى كل زمان ومكان بحسبه..

يروى مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ ، وهو على المنبر يقول :

« **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة. ألا إن القوة الرمى. ألا إن القوة الرمى. ألا إن القوة الرمى** » (٢).

وإطلاق الرمى فى الحديث يشمل كل ما يُرمي به العدو من سهم أو قذيفة، أوطيارة، أو صاروخ، وغير ذلك ، وإن لم يكن هذا معروفا فى عصره ﷺ ، فإن اللفظ يشمله ، والمراد منه يقتضيه.. وما يدرينا لعل الله تعالى أجراه على لسانه ﷺ مطلقا هكذا ، ليدل على العموم لأمته، فى كل عصر، بحسب ما يرمى به فيه..

وها نحن نعيش هذا العصر الذى يمتلك فيه العدو الصهيونى من وسائل الفتك والبطش ما يشهد به الواقع الأليم، مما يندى له الجبين !

وهذا يدفعنا إلى ضرورة الإعداد وفق مقتضيات العصر،بل وفق مقتضيات ما نرهب به اليهود ؛ لأن الله عز وجل يقول:

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾

ولفظ الآية أدل على العموم؛ لأنه أمر بالمستطاع، موجه إلى الأمة فى كل زمان ومكان وجيل وقبيل.. والواجب على المسلمين فى هذا العصر بنص القرآن الكريم صنع الأسلحة التى ترهب اليهود ومن على شاكلتهم ، كما يجب عليهم تعلم الفنون والصناعات التى يتوقف عليها صنع هذه الأسلحة..

وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ..

وقد ذكر الآلوسى فى تفسيره ما نصه:

---

(١) تفسير المنار: ١٠ : ٦١ وما بعدها بتصرف.

(٢) مسلم : ٣٣ ــ الإمارة ١٦٧ (١٩١٧) وأبو داود (٢٥١٤) والترمذى (٣٠٨٣) وابن ماجه (٢٨١٣) والحاكم : ٢ : ٣٢٨ وأحمد : ٤ : ١٥٧ .

وأنت تعلم أن الرمى بالنبال اليوم لا يصيب هدف القصد من العدو؛ لأنهم استعملوا الرمي بالبندق والمدافع، ولا يكاد ينفع معها نبل . وإذا لم يقابلوا بالمثل عم الداء العضال، واشتد الوبال والنكال ، وملك البسيطة أهل الكفر والضلال، فالذى أراه، والعلم عند الله تعالى، تعين تلك المقابلة على أئمة المسلمين، وحماة الدين ولعل فضل ذلك الرمى يثبت لهذا الرمي، لقيامه مقامه في الذب عن بيضة الإسلام.

وقد جزم العلماء قبله ـ كما قال صاحب المنار ـ بعموم نص الآية :

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾

قال الرازى بعد أن أورد ثلاثة أقوال فى تفسيرها، منها: الرمى الوارد فى الحديث: قال أصحاب المعانى:

الأوْلى أن يقال : إن هذا عام فى كل ما يتقوى به على حرب العدو، وكل ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القوة ..

وقد دلت هذه الآية ـ كما يقول القاسمى [1] ـ على وجوب إعداد القوة الحربية، اتقاء بأس العدو وهجومه. ولما عمل الأمراء بمقتضي هذه الآية، أيام حضارة الإسلام، كان الإسلام عزيزا عظيما، أبى الضيم، قوى القنا، جليل الجاه، وفير السنا، إذ نشر لواء سلطته على منبسط الأرض ، فقبض على ناصية الأقطار والأمصار، وخضد شوكة المستبدين الكافرين ، وزحزح سجوف الظلم والاستبعاد، وعاش بنوه أحقابا متتالية، وهم سادة الأمم ..

وأما اليوم فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة ، ومالوا إلى النعيم والترف، فأهملوا فرضا من فروض الكفاية ، فأصبحت الأمة جميعها آثمة بترك هذا الفرض ، ولذا تعانى اليوم من غصته ما تعانى، وكيف لا يطمع العدو بالممالك الإسلامية، التى لا ترى فيها معامل للأسلحة ، وذخائر الحرب، بل كلها مما يشترى من بلاد العدو؟!

أما آن لنا أن نتنبه من غفلتنا ، وننشئ معامل لصنع المدافع والبنادق والقذائف والذخائر الحربية؟ فلقد ألقى عليها تنقص العدو بلادها من أطرافها درسا يجب أن تتدبره، وتتلافى ما فرطت به !

نعم ، هذا ما فعله اليهود منذ قامت بيننا وبينهم الحروب!

---

(١) تفسير القاسمى : ٨ : ٣٠٢٥ بتصرف.

فهل آن لنا أن نصحو من غفلتنا، ونتنبه من غفوتنا، وندرك حقيقة ما نحن عليه وما عليه اليهود؟ إنه لابد من الإعداد لمواجهة اليهود بما يرهبهم!

يقول المرحوم الشيخ شلتوت(١) : ورحم الله ذلك الزمان الذي كانت فيه آيات القرآن فى قلوب حامليها أقوى حافز على التضحية بالنفوس في سبيل إنقاذ الدولة ورد الطغيان عنها، وتعسا وخزيا لزمن جعل فيه العلم وحفظ القرآن عنوانا على عجز أهله، حتى اتخذوا علمهم بالدين، وحفظهم للقرآن وسيلة من الوسائل التى تبررهم فى الجبن والضعف والخور !

وقد تناقلت الأخبار أن أحبار اليهود كانوا فى مقدمة من شاركوا فى الحروب بيننا وبينهم عام ١٩٦٧، حتى يعطوا الحرب قداسة ويدفعوا الجنود إلى المواجهة، أما نحن فالواقع يندى له الجبين !

إنها معركة عقيدة ـ كما أسلفنا ـ وعلينا أن نرتفع إلى مستوى المواجهة مع هؤلاء اليهود إخوان القردة والخنازير !

والرسول الحبيب المحبوب ﷺ كان يدرب رجاله على فنون الحرب، واشترك معهم فى الاستعداد للمعارك، بل والمشاركة فيها، كما هو معلوم، وقد زود هؤلاء الرجال بثقافة إسلامية لا تعلوها ثقافة، ألا وهى ثقافة القرآن والسنة، ولعلنا نذكر أن التفكير فى جمع القرآن الكريم كان من بواعثه الخوف أن يذهب بذهاب هؤلاء القراء الذين كانوا أكثر القوم إقداما وبسالة فى القتال ، وكان هذا الإقدام سببا فى أن يستحر القتل فيهم ، وأن يهرع أصحاب رسول الله إلى خليفة رسول الله يستنهضونه فى سرعة العمل على جمع هذا القرآن...

والرسول الحبيب المحبوب ﷺ كان يحرضهم على ركوب البحر، وذلك فيما رواه الشيخان وغيرهما عن إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه سمعه يقول:

كان رسول الله ﷺ يدخل على أم حرام بنت مِلْحان فتطعمه ، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ ، فأطعمته، وجعلت تَفْلى رأسه، فنام رسول الله ﷺ ، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت فقلت: وما يُضحكك ؟ يا رسول الله ؟ قال:

---

(١) تفسير القرآن الكريم : ٢٥٠.

«ناس من أمتي عُرضوا عليّ غزاة في سبيل الله، يركبون ثَبَجَ هذا البحر، ملوكا على الأسرة» أو «مثل الملوك على الأسرة».

شك إسحاق قالت فقلت: يا رسول الله ! ادع الله أن يجعلني منهم. فدعا لها رسول الله ﷺ. ثم وضع رأسه، ثم استيقظ وهو يضحك. فقلت: وما يضحكك يا رسول الله؟ قال:

«ناس من أمتي عُرضوا عليّ غزاة في سبيل الله» .

كما قال في الأول. قالت فقلت: يا رسول الله ! ادع الله أن يجعلني منهم، قال:

« أنت من الأوَّلين » .

فركبتْ البحر في زمان معاوية بن أبي سفيان، فصُرعت عن دابتها، حين خرجت من البحر فهلكت [١] .

يقول النووي:[٢] اتفق العلماء على أنها كانت محرما له ﷺ، واختلفوا في كيفية ذلك، فقال ابن عبد البر وغيره: كانت إحدى خالاته من الرضاعة، وقال آخرون: بل كانت خالة لأبيه أو لجده، لأن عبد المطلب كانت أمه من بني النجار.

وقد كشف القرآن الكريم للمؤمنين عن منابع القوة وعناصرها، وأمرهم بالبحث عنها، واستخدامها ومسايرة التقدم البشري، والسبق في الكشف والاختراع والسلطان، وبين لهم أنها في الحديد وما يستخرج منه من المصنوعات النافعة بواسطة النار التي هي أقوى منه كنتيجة للفكر والعمل، وأثبت لهم هذه الحقيقة، حتى جعلها عقيدة، لا قيام لدينهم ولا لدولتهم إلا بها، حيث أعلمهم أن الله سبحانه أنزل الحديد مع الكتاب إشارة إلى أن القوة مع الحق ـ كما يقول المرحوم الشيخ شلتوت[٣] ـ ولا قيام له إلا بها، فقال تعالى:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[٤] .

---

(١) البخاري: ٥٦ ـ الجهاد (٢٧٨٨)، (٢٧٨٩) ومسلم: ٣٣ ـ الإمارة ١٦٠ (١٩١٢)، والموطأ: ٢١ ـ الجهاد (٣٩)، وأبو داود (٢٤٩٠ ـ ٢٤٩٢)، والترمذي (١٦٤٥)، والنسائي: ٦: ٤٠ ـ ٤١.

(٢) مسلم بشرح النووي: ١٣ : ٥٧ ـ ٥٨.
(٣) تفسير القرآن الكريم : ٢٤٨.
(٤) الحديد: ٢٥.

وهذه إشارة إلى ما فى الحديد من قوة لشد عضد المسلمين فى التمسك بحقهم، والمحافظة عليه، ولنتأمل قوله تعالى فى هذه الآية..

وكيف زاوج بين الكتاب والميزان وبين الحديد فى أنه أنزل الجميع فى آن واحد، وكيف خلع على الحديد الذي به قوام الميزان وحفظ القسط هذين الوصفين: البأس الشديد والنفع العظيم.. نتأمل هذا ثم ننظر مما تتخذ أدوات القتال برية وبحرية وجوية .. ثم نتأمل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾

لنعلم أن نصر الله معقود لمن سخر الحديد واتخذ منه القوة والبأس (١).

وفى هذه السورة ـ سورةالحديد ـ إشارة إلى شىء من أحوال أهل الكتاب، ومواقفهم السابقة والحاضرة فى ذلك الأوان (٢)، كالإشارة السابقة إلى قسوة قلوبهم عند تحذير الذين آمنوا أن يكونوا:

﴿ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (٣).

وهى إشارة إلى اليهود خاصة فى الغالب ـ كما سبق ـ وكالإشارة إلى النصارى قرب نهاية السورة فى قوله:

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (٤).

ثم يجيء الهتاف الأخير للذين آمنوا، وهم الحلقة الأخيرة في سلسلة المؤمنين، وورثة الرسالة الذين يقومون عليها إلى يوم الدين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٨ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (٥).

---

(١) الإسلام والعلاقات الدولية: ٤٩.
(٢) فى ظلال القرآن: ٦: ٣٤٧٦ وما بعدها بتصرف.
(٣) الحديد: ١٦.
(٤) الحديد: ٢٧.
(٥) الحديد: ٢٨، ٢٩.

والنداء على هذا النحو: «يأيها الذين آمنوا» فيه لمسة خاصة لقلوبهم، واستحياء لمعنى الإيمان، وتذكير برعايته حق رعايته، واستجاشة للصلة التي تربطهم بربهم الذى يناديهم هذا النداء الكريم الحبيب. وباسم هذه الصلة يدعوهم إلى تقوى الله والإيمان برسوله. فيبدو للإيمان المطلوب معنى خاص.. معنى حقيقة الإيمان وما ينبثق عنها من آثار.

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾

وسواء قلنا بما ذهب إليه ابن عباس رضى الله عنهما، حيث حمل هذه الآية على مؤمنى أهل الكتاب، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين، كما في الآية التى فى القصص ـ كما سبق ذكر ذلك بالتفصيل ـ وأنه قد وافقه الضحاك وعتبة بن أبى حكيم وغيرهما، وهو اختيار ابن جرير [(١)]، أو بما ذهب إليه سعيد بن جبير حيث قال: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين، أنزل الله تعالى هذه الآية في حق هذه الأمة.. سواء قلنا بهذا أو بذاك فإن الظاهر أن لفظ الآية أعم، وأن المقصود بها ـ كما قال القاسمى[(٢)] ـ حث كل من آمن بالنبى ﷺ على الثبات فى الإيمان والرسوخ فيه، والانصياع لأوامره.. ومنه ما حرض عليه فى الآيات قبلها من الإنفاق فى سبيله ، وسخاوة النفس فيه .. وأن لهم فى مقابلة ذلك أجرا وافرا ، كما فى أول السورة.

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾[(٣)].

فآخر السورة فيه رجوع لأوائلها بتذكير ما أمرت به ، وما سبق نزولها لأجله.

وفى التعبير القرآنى ﴿ **يؤتكم كفلين من رحمته** ﴾ زيادة امتداد للرحمة وزيادة فيض...

﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وهذا العطاء هبة لدنية، يودعها الله القلوب التى تستشعر تقواه، وتؤمن حق الإيمان برسوله.. هبة تنير القلوب فتشرق، وترى الحقيقة من وراء الحجب والحواجز ، ومن وراء الأشكال والمظاهر، فلا تتخبط، ولا تلتوى بها الطريق.. وتكون المغفرة والرحمة ..

﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ﴾

فقد كان أهل الكتاب ـ كما سبق ـ يزعمون أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله

---

(١) تفسير الطبرى: ٢٧ : ٢٤١ وما بعدها، وتفسير ابن كثير: ٤ : ٣١٧.

(٢) تفسير القاسمى: ١٦ : ٥٧٠١.   (٣) الحديد: ٧.

وأحباؤه .. ومن ثم كانت دعوة الذين آمنوا إلى استحقاق رحمة الله وجنته ومغفرته، حتى يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على احتجاز شيء من فضله:

﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

وهي دعوة فيها تخصيص واستجاشة واستثارة للسباق إلى الجنة والرحمة..

وإذا عرف المسلمون قيمة فضل الله عليهم وعلى الناس بهذا الحديد الذى أنزله، فليعرفوا أنه جعل الحديد رادعا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه، وليذكروا فضل الله على نبيه داود عليه السلام، في إلهامه طرق الانتفاع بالحديد، لتكون لنا منه العبرة والذكرى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (١).

وفى هذا ما يدفع المسلمين - كما يقول المرحوم الشيخ شلتوت(٢) - إلى إنشاء المصانع التى تخرج لهم ما يحتاجون إليه في حفظ حياتهم، وتعصمهم من التطلع إلى ما فى أيدى أعدائهم، غير مشغولين بشيء سوى الافتتان والتعجب منه، والوقوف أمامه كالمبهوت المستغرب.

وقد علم الحق تبارك وتعالى داود عليه السلام صناعة أسلحة القتال، فقال جل شأنه:

﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ (٣).

يقول القرطبى(٤) : هذه الآية أصل فى اتخاذ الصنائع والأسباب ، وهو قول أهل العقول والألباب ، لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء، فالسبب سنة الله فى خلقه، فمن طعن فى ذلك فقد طعن فى الكتاب والسنة .. وقد أخبر الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع.. والصنعة يكفّ بها الإنسان نفسه عن الناس، ويدفع بها عن نفسه الضرر والبأس.

---

(١) سبأ: ١٠ - ١٣.
(٢) تفسير القرآن الكريم: ٧٤٧.
(٣) الأنبياء: ٨٠.
(٤) تفسير القرطبى: ١١: ٣٢١ بتصرف.

والمسلمون مأمورون بالسبق فى هذا المضمار الذى لا نهاية له ، حتى يحققوا أمر الله تعالى فى إعداد الأسلحة التى ترهب عدوهم ..

وقد كان سلفنا الصالح على مستوى المسئولية وكانوا قادة فسادوا العالم، وقادوا الشعوب، ونشروا لواء الإسلام .

يقول « لوبو » عند الكلام عن حصار دمشق سنة ٦٣٤ :

تعلم المسلمون من العرب الذين كانوا استخدموا فى كتائب الإمبراطورية البيزنطية صنع آلات الحرب واستعمالتها فكانوا يضربون هذه المدنية بشدة [١].

وقد عرفنا أن الغرض من إعداد القوة إلقاء الرعب والرهبة فى قلوب هؤلاء اليهود ومن على شاكلتهم، الذين هم أعداء العصبة المؤمنة فى الأرض [٢] الظاهرين منهم الذين يعلمهم المسلمون ، ومن وراءهم ممن لا يعرفونهم، أو لم يجهروا لهم بالعداوة ، والله يعلم سرائرهم وحقائقهم. وهؤلاء ترهبهم قوة الإسلام ولو لم تمتد بالفعل إليهم ..

والمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء، وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة ليكونوا مرهوبين فى الأرض ، ولتكون كلمة الله هى العليا ، وليكون الدين كله لله:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾

ولما كان إعداد العدة يقتضي أموالا، وكان النظام الإسلامي كله يقوم على أساس التكافل، فقد اقترنت الدعوة إلى الجهاد بالدعوة إلى إنفاق المال فى سبيل الله:

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

وهكذا يجرد الإسلام الجهاد والنفقة فى سبيله، من كل غاية أرضية ، ومن كل دافع شخصى، ومن كل شعور قومى أو طبقى ، ليتمخض خالصا « فى سبيل الله » لتحقيق كلمة الله، ابتغاء رضوان الله.

ومن ثم ينفى الإسلام من حسابه ـ منذ الوهلة الأولى ـ كل حرب تقوم على أمجاد الأشخاص والدول ! وكل حرب تقوم للاستغلال وفتح الأسواق! وكل حرب تقوم

---

(١) آيات الجهاد فى القرآن الكريم: ١١٩ نقلا عن: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية: باريس سنة ١٦٧٨.

(٢) فى ظلال القرآن : ٣: ١٥٤٤ بتصرف.

للقهر والإذلال! وكل حرب تقوم لتسويد وطن على وطن ، أو قوم على قوم، أو جنس، أو طبقة على طبقة !

ويستبقى نوعا واحدا من الحركة..

حركة الجهاد في سبيل الله عز وجل..

والله سبحانه لا يريد تسويد جنس ولا وطن ولا قوم ولا طبقة ولا فرد ولا شعب..

إنما يريد أن تسود ألوهيته وحاكميته .. وهو غنى عن العالمين.

ولكن هذه السيادة هى وحدها التى تكفل الخير والبركة والحرية والكرامة للعالمين.

سمات أصيلة:

وما دمنا نتحدث عن قتال أهل الكتاب، فإن علينا أن نتصور ما حدث من اليهود الذين تعجلوا الشر فباءوا به، ومن ثم كان القتال ضرورة ـ كما سبق ـ وعلينا في الوقت ذاته أن نتذكر قول ابن القيم في ترتيب سياق هدى النبى ﷺ مع هؤلاء ومن على شاكلتهم، لأنه ـ كما عرفنا ـ تلخيص جيد لمراحل الجهاد فى الإسلام، تتجلى فيه سمات أصيلة عميقة [١] .

السمة الأولى: هى الواقعية الجدية في منهج هذا الدين القيم.. فهو حركة تواجه واقعا بشريا من اليهود ومن على شاكلتهم .. إنها تواجه جاهلية اعتقادية تصورية ـ كما سبق فى حديثنا عن الفكر اليهودى ـ تقوم عليها أنظمة واقعية عملية، تسندها سلطات ذات قوة مادية .. ومن ثم تواجه الحركة الإسلامية هذا الواقع اليهودى والوثنى كله بما يكافئه.. وهذا معلوم من أحداث السيرة، حيث كانت المعارك متنوعة، تارة مع المشركين، وتارة مع اليهود، وتارة معهما معا، وتارة مع النصارى، وهكذا ...

وهذا يدفعنا إلى ضرورة دراسة السيرة النبوية ـ كما قلنا ـ دراسة موضوعية، وفق المنهج الذى نقدم به هذه الدراسات، حتى تتبين المعالم، مع ضرورة الالتزام بقواعد التحديث رواية ودراية، حتى نستطيع تقديم هذه المعالم وفق معايير النقد عند المحدثين، وتنقية الآثار الواردة من الإسرائيليات ، وفى الوقت نفسه نعرض أحداثنا المعاصرة على ما يقابلها من أحداث السيرة، حتى تكون الدراسة منهجية موضوعية علمية تربوية معاصرة..

وهذه الحركة الإسلامية تواجه الواقع بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات،

---

(١) المرجع السابق: ١٤٣٢ بتصرف.

وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة هذا الباطل ومن يحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات، وتخضعهم بالقهر والتضليل، وتعبدهم لغير ربهم الجليل...

إنها حركة لا تكتفي بالبيان في وجه هذا الطغيان، كما أنها لا تستخدم القهر المادي لضمائر الناس.. وهذه كتلك سواء فى منهج هذا الدين، وهو يتحرك لإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله عز وجل وحده .

والسمة الثانية : في منهج هذا الدين القيم : هي الواقعية الحركية . فهو حركة ذات مراحل : كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية . وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها ـ كما سبق أن عرفنا ـ فهو لا يقابل الواقع اليهودى وغيره بنظريات مجردة . كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة .. والذين يسوقون النصوص من الكتاب والسنة للاستشهاد بها على منهج هذا الدين القيم فى الجهاد، ولايراعون هذه السمة فيه، ولايدركون طبيعة المراحل التى مر بها هذا المنهج، وعلاقة النصوص المختلفة بكل مراحلها .. والذين يصنعون هذا يخلطون خلطا شديدا، ويحملون هذه النصوص ما لا تحتمله من المبادئ والقواعد..

والسمة الثالثة : هى أن هذه الحركة الدائبة، والوسائل المتجددة، لاتخرج هذا الدين عن قواعده المحددة، ولاعن أهدافه المرسومة. فهو منذ اليوم الأول .. سواء وهو يخاطب العشيرة الأقربين، أو يخاطب قريشا، أو يخاطب العرب أجمعين، أو يخاطب أهل الكتاب، أو يخاطب العالمين، إنما يخاطبهم بقاعدة واحدة، ويطلب منهم الانتهاء إلى هدف واحد.. هو إخلاص العبودية لله، والخروج من العبودية للعباد .. لامساومة فى هذه القاعدة .. ثم تمضى إلى تحقيق هذا الهدف الواحد، فى خطة مرسومة، ذات مراحل محددة، ولكل مرحلة وسائلها المتجددة، كما عرفنا فى سياق هدي النبى ﷺ مع هؤلاء جميعا..

والسمة الرابعة: هى ذلك الضبط التشريعى للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى .. وقيام ذلك الضبط على أساس أن الإسلام لله هو الأصل العالمى الذى على أهل الكتاب ومن على شاكلتهم أن يفيئوا إليه، أو أن يسالموه. بجملته .. ومن ثم لايقبل منهم أن يقفوا لدعوته بأى حائل من نظام سياسى، أو قوة مادية .. وإنما عليهم أن يتركوا لكل إنسان أن يختاره أو لا يختاره بمطلق إرادته . على ألايقاومه ولايحاربه !

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير « الإنسان » فى « الأرض » من العبودية للعباد .. ومن العبودية لهواه أيضا .. وذلك بإعلان ألوهيته الله وحده وربوبيته للعالمين .. لاكما يزعم اليهود بأن لهم إلها خاصا بهم، يطلقون عليه ــ كما سبق ــ كلمة « يهوه » وفى هذا يقول « ول ديورانت » :

يبدو أن الفاتحين اليهود عمدوا إلى أحد آلهة كنعان فصاغوه فى الصورة التى كانوا هم عليها، وجعلوا منه إلها، ويؤيد ذلك أن من بين الآثار التى وجدت فى كنعان سنة ١٩٣١م قطعا من الخزف من بقايا عصر البرنز (٣٠٠٠ ق م) عليها اسم إله كنعانى يسمى « ياه » أو « ياهو » (١) .

وعلى هذا تكون كلمة « يهوه » معروفة قبل ميلاد إبراهيم عليه السلام!

وفى أسفارهم المقدسة أن إبراهيم عرف « يهوه » بلفظه ومعناه !

ومن ثم كانت المواجهة مع اليهود !

إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها : الثورة الشاملة على الجاهلية فى كل صورها وأشكالها !

وإن هذا الإعلان معناه تحطيم الجاهلية فى الاعتقاد والتصور، لإقامة دين الله، كما يحب الله :

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) .

إنها لدعوة منصفة من غير شك (٣). دعوة لايريد بها الرسول الحبيب والمحبوب ﷺ أن يتفضل عليهم هو ومن معه من المسلمين .. كلمة سواء يقف أمامها الجميع على مستوى

---

(١) مقارنة الأديان : اليهودية : ١٦٠ نقلا عن قصة الحضارة : ٢: ٣٤٠ .

(٢) آل عمران : ٦٤ــ٦٨ .　　　(٣) المرجع السابق : ١: ٤٠٦ بتصرف .

واحد .. لايعلو بعضهم على بعض، ولايتعبد بعضهم بعضا .. دعوة لا يأباها إلامتعنت مفسد، لايريد أن يفيء إلى الحق القويم .

إنها دعوة إلى عبادة الله وحده لايشركون به شيئا، لابشرا ولاحجرا .. ودعوة إلى ألا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله . لانبيا ولارسولا : فكلهم لله عبيد .. إنما اصطفاهم الله للتبليغ عنه، لالمشاركته في الألوهية والربوبية :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

فإن أبوا عبادة الله وحده دون شريك . والعبودية لله وحده دون شريك. وهما المظهران اللذان يقرران موقف العبيد من الألوهية .. إن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون .

وهذه المقابلة بين المسلمين وبين هؤلاء الذين يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، تقرر بوضوح حاسم من هم المسلمون ..إنهم هؤلاء الذين يعبدون الله وحده، ويتعبدون لله وحده، ولايتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله .. هذه هي خصيصتهم التي تميزهم من سائر الملل والنحل، وتميز منهج حياتهم من مناهج حياة البشر جميعا ..

إن الإسلام هو التحرر المطلق من العبودية للعبيد ..

وإن النظام الإسلامي هو وحده من بين سائر النظم هو الذي يحقق هذا التحرر ..

ومن ثم ينكر تبارك وتعالى ـ كما قال ابن كثير[1] ـ على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل عليه السلام، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم، كما قال محمد بن إسحاق بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه قال :

اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ ، فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار : ماكان إبراهيم إلايهوديا، وقالت النصارى : ماكان إبراهيم إلانصرانيا، فأنزل الله تعالى :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

أي كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهوديا، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة

---

(١) تفسير ابن كثير : ١ : ٣٧٢ بتصرف .

على موسى، وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانيا ، وإنما حدثت النصرانية بعده بدهر، ولهذا قال تعالى :

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

ثم قال تعالى :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾

أى متحنفا عن الشرك، قاصدا إلى الإيمان :

﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

وهذه الآية كقوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(١) .

وهذه الحقيقة نبصرها فى قوله :

﴿ وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾

ولكن إبرازها هنا يشير إلى عدة من لطائف الإشارة والتعبير :

يشير أولا إلى أن أهل الكتاب هؤلاء الذين انتهى أمرهم إلى تلك المعتقدات المنحرفة ـ كما أسلفنا ـ مشركون .. ومن ثم لايمكن أن يكون إبراهيم يهوديا ولانصرانيا، ولكن كان حنيفا مسلما !

ويشير ثانيا إلى أن الإسلام شىء والشرك شىء آخر . فلا لقاء بينهما بحال من الأحوال .. والإسلام هو التوحيد المطلق بكل خصائصه، وكل مقتضياته .. ومن ثم لا يلتقى مع ألوان الشرك أصلا !

ويشير ثالثا إلى إبطال دعوى المشركين أنهم على دين إبراهيم، وسدنة بيته فى مكة، فهو حنيف مسلم، وهم مشركون !

﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

ومادام إبراهيم عليه السلام كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين، فليس لأى من أهل الكتاب أو المشركين أيضا أن يدعى وراثته، ولاالولاية على ذلك ، وهم بعيدون عن

(١) البقرة : ١٣٥ .

عقيدته.. والعقيدة هى الوشيجة الأولى التى يتلاقى عليها الناس فى الإسلام. حين لايلتقون على نسب ولا أرومة ولاجنس ولا أرض، إذا أنبتت تلك الوشيجة التى يتجمع عليها أهل الإيمان. فالإنسان فى ميزان الإسلام إنسان بروحه. بالنفخة التى جعلت منه إنسانا .. ومن ثم فهو يتلاقى على العقيدة أخص خصائص الروح فيه. ولايلتقى على مثل ماتلتقى عليه البهائم من الأرض والجنس والكلأ والمرعى والحد والسياج ! والولاية بين فرد وفرد، وبين مجموعة ومجموعة، وبين جيل من الناس وجيل ، لاترتكن إلى وشيجة أخرى سوى وشيجة العقيدة. يتلاقى فيها المؤمن والمؤمن. والجماعة المسلمة والجماعة المسلمة. والجيل المسلم والأجيال المسلمة، ومن وراء حدود الزمان والمكان، ومن وراء فواصل الدم والنسب، والقوم والجنس، ويتجمعون أولياء ـ بالعقيدة وحدها ـ والله من ورائهم ولى الجميع:

﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

فالذين اتبعوا إبراهيم فى حياته، وساروا على منهجة، واحتكموا إلى سنته هم أولياؤه.. ثم هذا النبى الذى يلتقى معه فى الإسلام بشهادة الله أصدق الشاهدين .. ثم الذين آمنوا بهذا النبى ﷺ، فالتقوا مع إبراهيم عليه السلام فى المنهج والطريق :

﴿ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

فهم حزبه .. ينتمون إليه، ويستظلون برايته، ويتولونه ولايتولون أحدا غيره .. وهم أسرة واحدة. وأمة واحدة . من وراء الأجيال والقرون، ومن وراء المكان والزمان، ومن وراء القوميات والأجناس، ومن وراء الأرومات والبيوت !

فأين اليهود ومن على شاكلتهم من ذلك ؟!

إن هذه الصورة هى أرقى صورة للتجمع الإنسانى تليق بالكائن الإنسانى .. وتميزه من القطيع ! كما أنها هى الصورة الوحيدة التي تسمح بالتجمع بلا قيود، لأن القيد الواحد فيها اختيارى يمكن لمن يشاء أن يفكه عن نفسه بإرادته الذاتية . فهو عقيدة يختارها بنفسه فينتهى الأمر .

على حين لايملك الفرد أن يغير جنسه إن كانت رابطة التجمع هى الجنس كما يفعل اليهود !

ولايملك أن يغير قومه ... إن كانت رابطة التجمع هى القوم ... كما يفعلون أيضا !

ولايملك أن يغير لونه .. إن كانت رابطة التجمع هى اللون !

ولا يملك ـ بيسر ـ أن يغير لغته .. إن كانت رابطة التجمع هى اللغة !

ولا يملك ـ بيسر ـ أن يغير طبقته .. إن كانت رابطة التجمع هى الطبقة !

بل قد لا يستطيع أن يغيرها أصلا إن كانت الطبقات وراثة كما فى الهند مثلا !

ومن ثم تبقى الحواجز قائمة أبدا دون التجمع الإنسانى ما لم ترد إلى رابطة العقيدة والتصور .. الأمر المتروك للاقتناع الفردي ، والذى يملك الفرد بذاته، بدون تغير أصله أو لونه أو طبقته أن يختاره ، وأن ينضم إلى الصف على أساسه .

وذلك فوق مافيه من تكريم للإنسان، يجعل رابطة تجمعه مسأله تتعلق بأكرم عناصره، المميزه له من القطيع !

والبشرية إما أن تعيش ـ كما يريدها الإسلام ـ أناسيّ تتجمع على زاد الروح وسمة القلب وعلامة الشعور .. وإما أن تعيش قطعانا خلف سياج الحدود الأرضية، أو حدود الجنس ـ كما يفعل اليهود ومن على شاكلتهم ـ وكلها حدود وقيود وسدود مما يقام للماشية فى المرعى حتى لايختلط قطيع بقطيع !

إن هذا الإعلان العام لتحرير « الإنسان » فى « الأرض »[1] من كل سلطان غير سلطان الله، بإعلان ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين، لم يكن إعلانا نظريا فلسفيا سلبيا .. إنما كان إعلانا واقعيا إيجابيا .. إعلانا يراد له التحقيق العملى في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله، ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده بلاشريك .. ومن ثم لم يكن بد من أن يتخذ شكل الواقعية الإيجابية إلى جانب شكل البيان .. ذلك ليواجه هذا الواقع اليهودى ومن على شاكلته بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه !

والواقع اليهودى ومن على شاكلتـه، أمس واليـوم وغـدا، يواجـه هـذا الدين القيـم ـ بوصفه إعلانا عاما لتحرير « الإنسان » فى « الأرض » من كل سلطان غير سلطان الله ـ بعقبات اعتقادية تصورية، وعقبات مادية واقعية .. ، ومن ثم كان الغزو الفكرى بكل صوره وأشكاله حربا مريرة يقود حركتها أهل الكتاب ومن على شاكلتهم .. عقبات سياسية واجتماعيـة واقتصـادية وعنصـرية وطبقية، إلى جـانـب عقبـات العقـائد المنحرفة والتصورت الباطلة.. وتختلط هذه بتلك . وتتفاعل معها بصورة معقدة شديدة التعقيد ..

---

(١) المرجع السابق : ٣: ١٤٣٤ بتصرف .

ومن ثم كان قتال اليهود ضرورة لدعوة الحق، مادامت الأهداف هى إعلان تحرير «الإنسان» إعلانا جادا يواجه الواقع الفعلى بوسائل مكافئة له فى كل جوانبه، ولايكتفى بالبيان الفلسفى النظرى السلبى:

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (١).

الحرب المقدسة :

يقول أبو الأعلى المودودى (٢) : لقد جرت عادة الإفرنج أن يعبرو عن كلمة « الجهاد» «بالحرب المقدسة » « HOIYWAR » إذا أرادوا ترجمتها بلغاتهم، وقد فسروها تفسيرا منكرا، وتفننوا فيها، وألبسوها ثوبا فضفاضا من المعانى المموهة الملفقة، وقد بلغ الأمر فى ذلك أن أصبحت كلمة « الجهاد » عندهم عبارة عن شراسة الطبع والخلق والهمجية وسفك الدماء . وقد كان من لباقتهم وحسن بيانهم وتشويههم لوجوه الحقائق الناصعة أنه كلما قرع سمع الناس صورة هذه الكلمة « الجهاد » تمثلت أمام أعينهم صورة مواكب من الهمج المحتشدة، مصلتة السيوف، متقدة الصدور، بنار التعصب والغضب، متطايرا من عيونها شرار الفتك والنهب، عالية الأصوات، بهتاف « الله أكبر » زاحفة إلى الأمام، ما إن رأت كافرا حتى أمسكت بخناقه، وجعلته بين أمرين :

إما أن يقول كلمة « لا إله إلا الله » فينجو بنفسه .

وإما أن يضرب عنقه ، فتشخب أوداجه دما.

ولقد رسم الدهاة هذه « الصورة » بلباقة فائقة، وتفننوا فيها بريشة المتفنن المبدع ،

---

(١) التوبة : ٢٩ ـ ٣٢.

(٢) الجهاد فى سبيل الله : ٥ ومابعدها بتصرف ، وظلال القرآن : ٣: ١٤٤٤ ومابعدها .

وكان من دهائهم ولباقتهم فى هذا الفن أن صبغوها بصبغ من النجيع الأحمر، وكتبوا تحتها:

« هذه الصورة مرآة لما كان بسلف هذه الأمة من شره إلى سفك الدماء، وجشع إلى الفتك بالأبرياء »!

والعجب كل العجب، أن الذين عملوا هذه الصورة، وقاموا بما كان لهم من حظ موفور فى إبرازها وعرضها على الأنظار، هم الذين مضت عليهم قرون وأجيال يتقاتلون ويتناحرون فيما بينهم، إرضاء لشهواتهم الدنيئة، وإطفاء لأوار مطامعهم الأشعبية!

وتلك هى حربهم الملعونة غير المقدسة، التى آثاروها على الأمم المستضعفة، فى مشارق الأرض ومغاربها، وجاسوا خلال ديارهم يبحثون عن أسواق لبضائعهم، وأراض لمستعمراتهم التى يريدون أن يستعمروها، ويستبدوا بمنابع ثروتها، دون أصحابها الشرعيين وهم يفتشون عن المناجم وعن المعادن وعما تغله أرض الله الواسعة من الحاصلات التى يمكن أن تكون غذاء لبطون مصانعهم ومعاملهم، ويبحثون عن كل ذلك، وقلوبهم كلها جشع وشره إلى المال والجاه، وبين أيديهم الدبابات المدججة، وفوق رؤوسهم الطائرات المحلقة فى جو السما، ووراء ظهورهم مئات الألوف من العساكر المدربة، يقطعون على البلاد سبل رزقها، وعلى أهاليها الوادعين طريقهم إلى الحياه الكريمة، يريدون بذلك أن يهيئوا وقودا لنيران مطامعهم الفاحشة التى لاتزيدها الإيام إلا التهابا واضطرابا!

فلم تكن حروبهم فى « سبيل الله » وإنما كانت « فى سبيل شهواتهم الدنيئة، وأهوائهم الذميمة، ومطامعهم الأشعبية!

وإن تعجب فعجب حملاتهم وغاراتهم على شعوب وادعة آمنة، لم تكن من ذنبها إلا أن الله قد أنعم عليها بمعادن وكنوز فى أرضها. أو أنها كانت تملك تربة خصبة تغل أنواعا من الحبوب وخيرات الأرض، وإن لم يكن هذا ولا ذاك، فبحسبها ذنبا أنها يمكن أن تكون سوقا لبضائعهم النافقة، أو مستعمرة لبنى جلدتهم الذين ضاقت عليهم أرضهم فلفظتهم!

وأدهى من كل ذلك وأمر أنهم كثيرا مايغيرون على بلاد آمنة مطمئنة، بمجرد أنها تقع فى طريقهم إلى بلاد قد استولوا عليها من قبل، أويريدون الآن أن يستولوا عليها، ويأخذوا زمام أمرها بأيديهم!

هذه هى حال الذين يصموننا بالغزو والقتال . والذى سبق لنا من أعمال الفتوح والحروب المشروعة قد مضت عليها أحقاب طويلة!

أما أعمالهم المخزية هذه ـ والتى نبصرها الآن شاخصة منذ أكثر من أربعين عاما فى فلسطين ـ وما يزالون يقترفونها ليل نهار، بمرأى ومسمع من العالم المعاصر ! فهذه حرب مقدسة عندهم ! ونخطئ كثيرا حين نطلق نحن هذا الاسم « الحرب المقدسة » !

وأى بلاد الله، ياترى، قد سلمت من عدوانهم، وماتخضبت أراضيها بدماء أبنائها ؟!

وأية هذه القارات ماذاقت وبال تلك الحروب الملعونة ؟!

لكن هؤلاء الدهاة رسموا صورتنا بلباقة منكرة، وأبدأوا وأعادوا فى عرضها بشكل هائل بشع، قد سحب ذيل النسيان على صورتهم الذميمة، حتى لايكاد يذكرها أحد بجانب الصورة المنكرة التى صوروا بها تاريخنا ومآثر أسلافنا !

ومن ثم قال اليهود فى حرب ٦٧: إلى خيبر ! ولكن فاتهم أن الدائرة عليهم؛ لأن كثيرين من المسلمين اليوم أدركوا حقيقة الموقف ، وضرورة العودة إلى الله، والتجمع تحت لواء الإسلام .

وعلى كلٍ .. فما أعظم دهاءهم ، وما أبرعهم فى التزوير والتمويه !

قذائف الحق :

إن الجهاد الإسلامى ليس بجهاد لا غاية له، وإنما هو الجهاد فى « سبيل الله» وقد لزمه هذا الشرط لاينفك عنه أبدا :

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[1].

إن الإسلام لايعرف قتالا إلا فى هذا السبيل .. لايعرف القتال للغنيمة ! ولايعرف

---

(١) النساء : ٧٤ ـ ٧٦ .

القتال للسيطرة ! ولايعرف القتال للمجد الشخصى أو القومى !

ومن ثم فإن النكسات توالت فى معاركنا مع اليهود منذ رفع الشعار القومى، وكأن كلمة « **فى سبيل الله** » لم تعد تصلح ! إن علينا أن نحذر تلك الشعارات البراقة الخداعة، وأن نلزم النصوص القرآنية التى تحدد شرط الجهاد بأنه « **فى سبيل الله** ».

إنه لايقاتل إلا « **فى سبيل الله** » لإعلاء كلمة الله فى الأرض ، ولتمكن منهجة من تصريف الحياة . ولإسعاد البشرية بخيرات هذا المنهج ، وعدله المطلق بين الناس مع ترك كل فرد حرا فى اختيار العقيدة التى يقتنع بها .. فى ظل المنهج الربانى الإنسانى العالمى العام ..

ومن ثم فإن اليهود يخافون أشد الخوف من أن يتكون جيل يعرف ذلك؛ لأنهم حينئذ يواجهون قوما يحبون الموت فى سبيل الله كما يحبون هم الحياة الدنيا، فالموت فى سبيل الله حياة :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(١) .

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾(٢) .

إن اليهود يخافون أشد الخوف من مواجهة هؤلاء الذين يحملون أعناقهم على أكفهم طلبا للشهادة؛ لأنهم يعرفون نتيجة القتال حينئذ ، والتاريخ قديما وحديثا يشهد بذلك .. قديما حين خرجوا من الجزيرة .. وحديثا حين قابلوا المجاهدين فى الأربعينات من هذا القرن العشرين .. ومن ثم يخافون أشد الخوف من مواجهة الإسلاميين الذين يقاتلون « **فى سبيل الله** ».

وإن هذا التعبير القرآنى تعديل كامل لمفهوم الموت ـ متى كان فى سبيل الله ـ وللمشاعر المصاحبة له فى نفوس المجاهدين أنفسهم، وفى النفوس التى يخلفونها من ورائهم.. وإفساح لمجال الحياة ومشاعرها وصورها، بحيث تتجاوز نطاق هذه العاجلة، كما تتجاوز مظاهر الحياة الزائلة . وحيث تستقر فى مجال فسيح عريض ، لتعترضه

---

(١) آل عمران : ١٦٩ ـ ١٧١ .

(٢) البقرة : ١٥٤ .

الحواجز التى تقوم فى أذهاننا وتصوراتنا عن هذه النقلة من صورة إلى صورة ، ومن حياة إلى حياة!

والذين يضحون بأرواحهم « **فى سبيل الله** » هم عادة أكرم القلوب وأزكى الأرواح، وأطهر النفوس، ومن ثم فإن اليهود يخافونهم أشد الخوف، ولكن غدا لناظره قريب، وهم يعرفون ذلك كا يعرفون أبناءهم ، ولهذا فإنهم يرصدون الحركة الإسلامية ويرقبونها ويعينون عليها حزب الباطل فى شتى صوره وأشكاله .

إن المسلم حين يقاتل هؤلاء اليهود ومن على شاكلتهم ، يقصد إعلاء كلمة الحق، وتمكين منهجه فى الحياة .. ويرجو إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة :

﴿ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾

بهذه اللمسة [1] يتجه المنهج القرآنى إلى رفع هذه النفوس، وإلى تعليقها بالرجاء فى فضل الله العظيم، فى كلتا الحالتين. وأن يهون عليها ما تخشاه من القتل ، وما ترجوه من الغنيمة كذلك !

فالحياة الدنيا أو الغنيمة لا تساوى شيئا إلى جانب الفضل العظيم من الله..

كما يتجه إلى تنفيرها من الصفقة الخاسرة إذا هى اشترت الدنيا بالآخرة ولم تشتر الآخرة بالدنيا.. فهى خاسرة، سواء غنموا أو لم يغنموا فى معارك الأرض..

وأين الدنيا من الآخرة ؟

وأين غنيمة المال من فضل الله ؟ وهو يحتوى المال ـ فيما يحتويه ـ ويحتوى سواه ؟

﴿ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾

وكيف تقعدون عن القتال فى سبيل الله ، واستنقاذ هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ؟ !

---

(١) فى ظلال القرآن: ٢ : ٧٠٨ بتصرف.

هؤلاء الذين ترتسم صورهم الآن فى الأرض المحتلة فى مشهد مثير لحمية المسلم، وكرامة المؤمن، ولعاطفة الرحمة الإنسانية على الإطلاق؟ !

هؤلاء الذين يعانون أشد المحنة والفتنة؛ لأنهم يعانون المحنة فى عقيدتهم، والفتنة في دينهم.. وقد رأيت قبل كتابة هذا الموضوع بدقائق ـ كما رأى الكثيرون ـ عبر شاشة التليفزيون، محاصرة اليهود للمسجد الأقصى حتى لا يتجمع المسلمون لأداء صلاة الجمعة الأخيرة من رمضان ! ومع كل هذا دخل المسلمون، وكان العدوان اليهودى !

إن المحنة فى العقيدة أشد من المحنة فى المال والأرض والنفس؛ لأنها محنة فى أخص خصائص الوجود الإنسانى، الذى تتبعه كرامة النفس والعرض، ويتبعه حق المال والأرض ! فكيف إذا كان العدوان اليهودى يشمل كل ذلك ؟ !

وإن مشهد المرأة الكسيرة والتى ألقت جنينها، والتى اعتدى عليها... لمشهد مؤثر مثير !

وإن مشهد الولد الضعيف الذي تكسر يده لمجرد أنه يحمل حجراً فى وجه المدفع والدبابة والطائرة والصاروخ .. لمشهد مؤثر مثير !

ولا يقل عن هذا وذاك مشهد الشيوخ الذين لايملكون أن يدافعوا .. وإنه لمشهد مؤثر مثير !

هذا المشهد كله معروض في مجال الدعوة إلى الجهاد.. وهو وحده يكفي .. لذلك يستنكر القرآن القعود عن الاستجابة لهذه الصرخات:

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾

وهو أسلوب عميق الوقع، بعيد الغور فى مسارب الشعور والإحساس .. إن راية المسلم التى يحامى عليها هى عقيدته... وقد عرفنا من قبل أن اليهود يحاربوننا باسم عقيدتهم مع مافيها من وثنية وخرافات متعددة ! فلتتحول معركتنا معهم باسم الحق وفي سبيل الله ، حتى ينصرنا الله عليهم، حين تكون المقابلة بين الحق والباطل، وما علينا إلا أن نعلنها فى «سبيل الله » ومن ثم تكون قذائف الحق، ويكون إزهاق الباطل.. واليهود يعرفون هذا جيدا كما يعرفون أبناءهم.

وقد أخبرنى أحد الإخوة الفلسطينيين بأن أحد المسئولين فى الجيش اليهودى قال له: إننا نعرف أن حربا ستقوم بيننا وبينكم وأن الحجر سينطق بأن اليهودى سيكون وراءه، وأن هذا الحجر ينادى المسلم ليقتل اليهودى، فاتركونا بعض الوقت لنتمتع بالحياة!

وهى على كلٍّ طبيعة يهود!

وتأتى لمسة أخرى، لاستنهاض الهمم، واستجاشة العزائم، وإنارة الطريق، وتحديد القيم والغايات والأهداف:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾

وفى لمسة واحدة يقف الناس على مفرق الطريق.. وفى لحظة ترتسم الأهداف، وتتضح الخطوط ... وينقسم الناس إلى فريقين اثنين، تحت رايتين متميزتين:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾

والطاغوت ـ كما جاء فى المنار [1] ـ هو ما تكون عبادته والإيمان به سببا للطغيان والخروج عن الحق، من مخلوق يعبد، ورئيس يقلد، وهوى يتبع..

ومن ثم يكون التعجب من أمر هؤلاء اليهود الذين يؤمنون بالجبت والطاغوت:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [2].

إنهم هؤلاء الذين يشترون الضلالة، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويزكون أنفسهم:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ

---

(١) تفسير المنار: ٣: ٣٧، ٥: ١٥٧.

(٢) النساء: ٥١ ـ ٥٢.

وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾[1].

وسبق أن عشنا مع هذه الآيات وما فيها من دروس .. والكلام متصل بما قبله، فإنه تعالى ــ كما قال الشيخ محمد عبده [2] ــ ذكر أن اليهود يؤمنون بالجبت والطاغوت .. وذكر من سوء حالهم ووعيدهم ما ذكر، ثم أمر المؤمنين بأداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل؛ لأن أولئك خانوا بجعلهم الكافرين أهدى سبيلا من المؤمنين، وأمرهم بطاعة الله ورسوله فى كل شيء، وطاعة أولى الأمر فيما يجمعون عليه، مختارين لا مسيطر عليهم فيه، وبرد ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله، في مقابلة طاعة أولئك للطاغوت وإيمانهم به وبالجبت واتباعهم للهوى.

وبعد هذا بين لنا حال طائفة أخرى بين الطائفتين، وهم المنافقون الذين يزعمون أنهم آمنوا، ومن مقتضى الإيمان امتثال ما أمر به المؤمنون فى الآيتين السابقتين، ولكنهم مع هذه الدعوى يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت الذى عليه تلك الطائفة ، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[3].

وقد ذكر المفسرون أسبابا متعددة لنزول هذه الآية، يمنعنا اختلافها ، وتشتت رواياتها أن نجزم بواحدة معينة منها وإنما نسترشد بمجموعها إلى معرفة حال من أعرضوا عن حكم الرسول ﷺ ..

والطاغوت مصدر الطغيان، وهو يصدق على كل من جاءت الروايات فى سبب النزول بالتحاكم إليهم ..

ومن قصد التحاكم إلى أي حاكم يريد أن يحكم له بالباطل ، ويهرب إليه من الحق ،

---

(١) النساء : ٤٤ ــ ٥٠ . (٢) تفسير المنار : ٥ : ٢٢٣. (٣) النساء: ٦٠.

فهو مؤمن بالطاغوت، ولا كذلك الذي يتحاكم إلى من يظن أنه يحكم بالحق، وكل من يتحاكم إليه من دون الله ورسوله ممن يحكم بغير ما أنزل الله على رسوله فهو راغب عن الحق إلى الباطل، وذلك عين الطاغوت الذي هو بمعنى: الطغيان الكثير ، ويدخل في هذا ما يقع كثيرا من تحاكم الخصمين إلى الدجالين..

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[1].

وهى نص فى أن كل نبى أرسله الله تعالى قد أمر أتباعه باجتناب الطاغوت. وقال جل شأنه :

﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾[2].

إن اليهود إذن يقاتلون فى سبيل الطاغوت الذي ندد الحق به ! يقاتلون فى سبيل الطاغوت لغرض الباطل، وإقامة حزب الشيطان! هذا الحزب الذى يسانده الشرق والغرب، كما نرى ونشاهد، وإن اختلفت الأدوار !

وما علينا إلا أن نتجمع تحت راية القرآن، مستندين إلى ولاية الله وحمايته ورعايته، فإن هؤلاء اليهود يستندون إلى ولاية الشيطان بشتى الصور والمناهج والطرائق!

ومن ثم يأمرنا الله عز وجل بالقتال:

﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾

وهكذا يقف المسلمون على أرض صُلبة فى قتالهم، مسندين ظهورهم إلى ركن شديد. مقتنعى الوجدان بأنهم يخوضون معركة للحق ، فى « سبيل الله » ليس لأنفسهم منها نصيب، ولا لذواتهم منها حظ .. إنما هى لله وحده، ولمنهجه وشريعته..

ومن هنا يتقرر مصير المعركة فى حس المؤمنين[3] ، وتتحدد نهايتها قبل أن يدخلوها. وسواء بعد ذلك استشهد المؤمن فى المعركة ـ فهو واثق من النتيجة ـ أو بقى حتى غلب، ورأى بعينيه النصر، فهو واثق من الأجر العظيم.

من هذا التصور الحقيقى للأمر فى كلتا حالتيه، انبثقت تلك الخوارق الكثيرة التى

---

(١) النحل : ٣٦ . (٢) البقرة : ٢٥٥ .

(٣) فى ظلال القرآن : ٢ : ٧٠٩ بتصرف .

حفظها تاريخ الجهاد « **في سبيل الله** » في حياة الجماعة المسلمة الأولى، والتي تناثرت على مدى التاريخ في أجيال كثيرة..

ومن هذا التصور كان ذلك المد الإسلامي العجيب ، في أقصر فترة عرفت في التاريخ، فقد كان هذا التصور جانبا من جوانب التفوق الذي حققه المنهج الرباني للجماعة المسلمة، على المعسكرات المعادية..

إن هذا القرآن يخوض المعركة بالجماعة المسلمة[1] في كل جبهة .. في الضمائر والمشاعر، حيث ينشئ فيها عقيدة حقة، ومعرفة بربها كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وتصور للوجود وفق المنهج الرباني، ويقيم فيها موازين القسط ، وينشئ فيها قيما إيمانية، ويستنقذ فطرتها من ركام الجاهلية، ويمحو ملامح الطاغوت في النفس والمجتمع، وينشئ ويثبت ملامح الإسلام الوضيئة الجميلة.. ثم يقودها في المعركة مع أعدائها المتربصين بها في الداخل والخارج .. اليهود والمنافقين ومن على شاكلتهم.. وهي على أتم استعداد للقائهم، والتفوق عليهم، بأصالة بنائها الداخلي الاعتقادي والأخلاقي والاجتماعي والتنظيمي سواء..

ولقد كان التفوق الحقيقي للمجتمع المسلم على المجتمعات الجاهلية من حوله ـ بما فيها مجتمع اليهود القائم في قلب المدينة ـ هو تفوقه في البناء الروحي والخلقي والاجتماعي والتنظيمي ـ بفضل المنهج القرآني الرباني ـ قبل أن يكون تفوقا عسكريا أو اقتصاديا أو ماديا على العموم ! مع دعوة القرآن إلى إعداد القوة ـ كما أسلفنا ـ ومن ثم كان التفوق الحقيقي في ذلك البناء الروحي والخلقي والاجتماعي ـ ومن ثم السياسي والقيادي ـ الذي أسسه الإسلام بمنهجه الرباني المتفرد.

وبهذا التفوق اجتاح الحق الجاهلية ..

اجتاحها أولا في الجزيرة العربية، وواجه اليهود في تلك الغزوات التي نقدمها في هذه الدراسات ، وكانت الهزيمة لهم ...

واجتاحها ثانيا في الإمبراطوريتين الممتدتين حوله:

إمبراطوريتي: كسرى وقيصر.

ثم بعد ذلك في جوانب الأرض الأخرى..

---

(١) المرجع السابق : ٦٧٢ بتصرف.

ولولا هذا التفوق ما وقعت تلك الخارقة التى لم يعرف التاريخ لها نظيرا، حتى فى الاكتساحات العسكرية التاريخية الشهيرة ...

لقد كان تفوقا « إنسانيا » كاملا .. تفوقا فى كل خصائص الإنسانية ومقوماتها .. كان ميلاد آخر للإنسان. ميلاد إنسان جديد غير الذى تعرفه الأرض على وجه اليقين والتأكيد.. ومن ثم صبغ البلاد التى غمرها هذا المد بصبغته، وترك عليها طابعه الخاص، وتغلب على رواسب الحضارات التى عاشت عشرات القرون من قبل فى بعض البلاد. كالفرعونية فى مصر وحضارة البابليين والآشوريين فى العراق ، والفنيقيين والسريان فى الشام . لأنه كان أعمق جذورا فى الفطرة البشرية ، وأوسع مجالا فى النفس الإنسانية ، وأضخم قواعد وأشمل اتجاهات فى حياة بنى الإنسان ، من كل تلك الحضارات .

وغلبة لغة القرآن واستقرارها في هذه البلاد ، ظاهرة عجيبة ..

إذ إن اللغة من العمق فى الكينونة البشرية ومن التشابك مع الحياة الاجتماعية، بحيث يعد تغييرها على هذا النحو معجزة كاملة ! وليس الأمر فى هذا أمر اللغة العربية، فقد كانت قائمة ، ولكنها لم تصنع هذه المعجزة فى أى مكان على ظهر الأرض قبل الإسلام !

وهذا ما نشاهده فى عصرنا الحاضر مع الإخوة الذين هداهم الله للإسلام، وهم من بلاد شتى، ولهم لغات شتى ! إنهم يقرءون القرآن ، ويحسون إحساسا عميقا بحلاوته، مع أنهم لا يتكلمون العربية !

وكذلك اتجهت العبقريات الكامنة فى البلاد المفتوحة للحرية والنور والطلاقة .. وأنتجت فى كل حقل من حقول الثقافة نتاجا تبدو فيه الأصالة، ولا يلوح عليه الاحتباس من معاناة التعبير.. ذلك أن الرصيد الذى حملته لغة القرآن كان من الضخامة أولا ، ومن ملاصقة الفطرة ثانيا، بحيث كان أقرب إلى النفوس وأعمق فيها، من ثقافاتها القديمة. ومن لغاتها القديمة أيضا !

لقد كان هذا الرصيد هورصيد العقيدة والتصور، ورصيد البناء الروحى والعقلى والخلقى والاجتماعى الذى أنشأه المنهج الإسلامى فى فترة وجيزة.. وكان من الضخامة والعمق واللصوق بالفطرة، بحيث أمد هذه اللغة بسلطان لا يقاوم. كما أمد الجيوش الإسلامية بسلطان لا يقاوم كذلك !

ومن ثم كانوا قرآنا يتحرك ويقود .. وكانوا أهلا لنصر الله على اليهود ..

وهذا هو الطريق .. وتلك هى قذائف الحق التى تدفع باطل اليهود..

أهم المراجع

١ ـ الإسلام والعلاقات الدولية فى السلم والحرب، للشيخ محمود شلتوت ، الأزهر ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م .

٢ـ الإصابة فى تمييز الصحابة، لابن حجر ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣ ـ الأم، للشافعى، دار المعرفة، بيروت، ط ثانية ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣م .

٤ ـ آيات الجهاد فى القرآن الكريم ، للدكتور كامل سلامه الدقس ، دار البيان ، الكويت ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م .

٥ ـ البداية والنهاية ، لابن كثير، المعارف، بيروت ، ط ثانية ١٩٧٧ م .

٦ ـ تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير ، البابى الحلبى.

٧ ـ تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل القرآن) لابن جرير الطبرى ، البابى الحلبى، ط ثالثة ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م .

٨ ـ تفسير القاسمى (محاسن التأويل) للقاسمي ، تعليق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ، البابى الحلبى ، ط أولى ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م.

٩ ـ تفسير القرآن الكريم ، للشيخ محمود شلتوت ، دار القلم.

١٠ ـ تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبى ، دار إحياء التراث العربى، بيروت١٩٦٧م.

١١ ـ تفسير المنار (تفسير القرآن الكريم) للشيخ محمد عبده، تأليف محمد رشيد رضا، دار المعرفة ، بيروت .

١٢ ـ الجهاد، للدكتور عبد الحليم محمود، من أعمال المؤتمر الرابع للبحوث الإسلامية ١٩٦٨م.

١٣ ـ الجهاد فى سبيل الله ، الشيخ أبو الأعلى المودودى ، دار الفكر.

١٤ ـ حياة محمد ، للدكتور محمد حسين هيكل، دار إحياء التراث العربى، ط ١٣ النهضة المصرية ١٩٦٨م.

١٥ ـ خاتم النبيين، للشيخ محمد أبو زهرة ، المؤتمر العالمى الثالث للسيرة والسنة النبوية الدوحة ١٤٠٠ هـ .

١٦ ـ الروض الأنف، للسهيلى ، ومعه السيرة النبوية ، لابن هشام ، دار المعرفة ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨م .

١٧ ـ زاد المعاد فى هدى خير العباد، لابن القيم ، تحقيق الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، المنار الإسلامية ، ط أولى ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

١٨ ـ سنن ابن ماجه، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، دار الفكر العربى.

١٩ ـ سنن أبى داود، ط مصر التجارية الأولى، وط المدينة المنورة.

٢٠ ـ سنن الترمذى (الجامع الصحيح) للترمذى ، ط بولاق ١٢٩٢ هـ وط الهند وط الحلبى ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م

٢١ ـ سنن الدارمى، دار إحياء السنة النبوية .

٢٢ ـ السياسية الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية، لابن تيمية، ط الخيرية ١٣٢٢هـ.

٢٣ ـ السيرة النبوية ، لابن كثير، تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد ، دار المعارف، بيروت .

٢٤ ـ السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ط حجازى بالقاهرة وط الحلبى.

٢٥ ـ صحيح البخارى، مع فتح البارى، ترقيم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، الرياض الحديثة.

٢٦ ـ صحيح مسلم ، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى.

٢٧ ـ صحيح مسلم بشرح النووى ، ط المصرية.

٢٨ـ الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد، دار بيروت للطباعة والنشر.

٢٩ ـ عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، لابن سيد الناس ، ومعه اقتباس الاقتباس لحل كل مشكلة سيرة ابن سيد الناس ، لابن عبد الهادى ، دار المعرفة ، بيروت.

٣٠ ـ فتح البارى : شرح صحيح البخارى، لابن حجر، الرياض الحديثة ، البطحاء ، الرياض.

٣١ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، للعجلونى، تعليق أحمد القملاس، الرسالة، ط الرابعة ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م.

٣٢ ـ المبسوط، للسرخسى، السعادة، ط العاشرة ١٣٤٢ هـ.

٣٣ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمى، بتحرير العراقي وابن حجر ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ط ثالثة ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م.

٣٤ ـ محمد رسول الله ﷺ للأستاذ محمد الصادق عرجون، دار القلم، دمشق، ط أولى ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .

٣٥ ـ المستدرك على الصحيحين، للحاكم، وبذيله التلخيص ، للذهبى، ط أولى حيدر آباد.

٣٦ ـ مسند أحمد، وبهامشه منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للمتقى الهندى، ط الميمنية بمصر.

٣٧ ـ مشكاة المصابيح ، للخطيب التبريزى ، تحقيق الشيخ محمد ناصرالدين الألبانى ، ط ثانية ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

٣٨ ـ المقاصد الحسنة فى بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، للسخاوى، تعليق الأستاذ عبد الله محمد الصديق، وتقديم الأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر العربى ، بيروت ، ط أولى ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

٣٩ ـ منحة المعبود فى ترتيب مسند الطيالسى أبى داود ، مزيلا بالتعليق المحمود على منحة المعبود، للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا، الشهير بالساعاتى، مكتبة الفرقان مصر ، ط ثانية ١٤٠٣ هـ .

٤٠ ـ المواهب اللدنية، للقسطلانى، مع شرح الزرقانى ، وبهامشه زاد المعاد، لابن القيم، دار المعرفة ، بيروت ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

٤١ ـ مقارنة الأديان : اليهودية، للدكتور أحمد شلبى، ط ثانية ١٩٦٧ م النهضة المصرية

وهناك كتب ومطبوعات أخرى، رجعنا إليها ، وأشرنا إلى موضع النقل منها فى حينه.

الفهـــــــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة